المليونيرة والمحتال والنبيل

تأليف : هـ . دي بلوان : دوناسيان
ترجمة : يحيى الشربيني

الفصل الأول

تقع مدينة شيكاغو جنوب غربي البحيرات المتشابكة الثلاث ، البحيرة العليا وهيرون وميتشيجان ، التي تفصل بين كندا والولايات المتحدة الامريكية ، وتمتد المدينة على شاطىء بحيرة ميتشيجان لمسافات بعيدة ، ويزيد عدد سكانها على المليونين وهم في ازدياد مطرد.

وتشتهر هذه المدينة بصناعة اللحوم المحفوظة ، وبها مصانع عديدة طبقت شهرتها الآفاق ، ومن بينها مصانع سومفورد العالمية التي ترسم على اعلاناتها وملصقاتها المنتشرة في جميع انحاء العالم صورة آلة ادخل في احد طرفيها خنزير وتدلى من طرفها الآخر حبل من قطع السجق ..

وذات يوم من أيام الربيع خرج هنري د . سومفورد من قصره الكائن في الشارع الرابع خلف مقر محافظ الولاية مباشرة وهو قصر مشيد على غرار مبنى « البانتيون » (مقبرة العظماء) في باريس وأضيفت في مواجهته صورة طبق الاصل من كنيسة المادلين الشهيرة . ونزل سومفورد على الدرج الرخامي الابيض العريض ليجد سيارته الفاخرة في انتظاره ، فقفز داخلها ، وانطلق بها مسرعا نحو باب القصر المفتوح حيث وقف اثنان من خدمه في زيهما القرمزي الجميل ، فملأت وجهه ابتسامة ، وأخرج سيجارا فاخرا من جيبه اشعله بمشعل السيارة الكهربي ، وراح ينهب الطريق بسيارته القوية .

كان سومفورد فى الخمسين من عمره طويل القامة مليء الجسم عريض الوجه أزرق العينين ، نظراته هادئة تضفى عليها عويناته شيئا من الجدة ، ويعلو شفتيه شارب رفيع ، وكان يرتدى حلة رمادية وقميصا ابيض وحذاء متينا برقبة ، وهو بمظهره واخلاقه يمثل الامريكى الثرى ، بارد الطبع بادى النشاط ماضى العزيمة .

انطلق بسيارته فى الطريق الممتد على ضفاف بحيرة ميتشيجان والى يمينه البحيرة الهادئة تشق عبابها احدى البواخر التى تعمل ما بين شيكاغو وميلووكى ؛ والى يساره المصانع العديدة بأسوارها الحمراء ، والتفت سومفورد الى اليمين ثم الى اليسار وتمتم قائلا : هنا الهدوء والشاعرية .. وهناك العمل .. اننا حقا امريكيون .

وانحرفت السيارة بعد الميل السادس وسرعان ما لاحت مدينة اللحوم المحوطة المترامية الاطراف بمبانيها الواطئة ، يحوطها سور من الحجر الابيض ، ويعلوه سياج من القضبان الحديدية . ودخلت السيارة فناء المصنع واتجهت نحو المبنى الرئيسى ، فخرج منه رجل وقفز على سلمها وهى تهم بالتوقف ، وناول سومفورد ورقة صغيرة من خلال النافذة المفتوحة ، فتلاها هذا وما ان توقفت السيارة تماما حتى كان على علم بكل ما حدث فى المصنع أثناء غيابه .

ولم يضع سومفورد لحظة واحدة من وقته ، بل انطلق على الفور الى غرفة مكتبه وجلس على كرسيه ، وأشعل سيجارا آخر ، بينما وقف السكرتير العام خلفه منتظرا اوامره ، ونظر الى كومة الرسائل التى تنتظره وأخذ يتصفحها بسرعة والسكرتير يدلى اليه ببعض البيانات بصوت منخفض .

ـ هذا يا سيدى طلب من وكيلنا فى لندن ، عشرة آلاف علبة من لحم البقر للقوات المسلحة فى الهند .

ـ حسنا .

ـ وهذا من وكيلنا فى ماجلان .. الاهالى يطلبون تنويع الاصناف فى رسالاتنا القادمة .. وهذه رسالة باللاسلكى من القومندان هانيبال الذى يرأس بعثة القطب الجنوبى ، تكاليف الاعلانات دفعت بطبيعة الحال ، عشرة الاف دولار .

ـ حسنا ، انشرها غدا فى الجرائد بالبنط العريض ، وأرسل صور الكليشيهات الى الخارج باللاسلكى .

ـ نشرة المعرض فى لندن ، قيمة الايجار لجناحنا خمسمائة جنيه .

وصاح سومفورد مناديا : ـ يا سيد بوفيه .

واقبل أحد المديرين وهو يقول : ـ نعم يا سيدى .

ـ بمناسبة هذا المعرض .. اعتقد اننا لو اعددنا فيه مكانا للاكل ـ غداء سومفورد ـ على أن لا يدفع الزائر سوى ثمن المشروب والحلو ، لكان فى ذلك وفر للزائر واعلان لنا .. مفهوم ؟

وانحنى المدير وتراجع الى مكانه وهو يقيد التعليمات فى مذكرته ، ثم خرج من المكتب ولم تمض دقائق حتى شوهد من النافذة وهو ينطلق بالسيارة الى المدينة لتنفيذ التعليمات . ولم يدر سومفورد رأسه الى النافذة ، وانما مضى يؤشر بقلمه على هامش الرسائل بالاجابات المطلوبة ، واستدار بعد ذلك الى مديرى مختلف الاقسام ووجه اليهم بعض الاسئلة ثم طلب سكرتيرته الشابة فدخلت وبيدها كراسة وانتظرت .

ـ سعيد برؤياك يا آنسة ، تفضلى واكتبى .. نشرة دورية للوكلاء : « أحطت علما بالصعوبات التى تسببها

محطات الاذاعة في اذاعة اعلاناتنا ، واتخذت القرار التالي : اتصلوا بأية محطة خاصة واستأجروها أو اشتروها على أن تقتصر على الدعاية لمنتجات سومفورد فقط ، وعلى أن يخصص يوم في الاسبوع لا يسمع فيه العالم بأسره سوى الحديث عن سومفورد .. ارسلوا البيانات والتكاليف ، .. شكرا يا آنسة .

وتراجعت السكرتيرة خطوة الى الوراء ، ولكن سومفورد الذي عاد الى الكتابة ناداها :

– أرى عمل نشرة أخرى بهذه المناسبة .. يجب أن تكون لنا دعاية صوتية مناسبة كما يفعل أصحاب مصانع السيارات الفرنسيون ، فتفضلي واكتبي : « وكيلنا في لندن : « هل يمكن استئجار واجهة في برج لندن لاعلانات سومفورد الضوئية ؟ .. اطلبوا مساعدة السفير » .. وكيلنا في روما ، استأجروا قصر سان أنج للدعاية بالاعلانات الضوئية » .. « وكيلنا في مدريد ، « استأجروا قصر اسكوريال لنفس الدعاية الضوئية اذا أمكن » .. « وكيلنا في برلين : استأجروا سطح قصر بوتسدام للدعاية الضوئية » .. « وكيلنا في ...

وهنا علت ضجة غامضة في الغرفة الامامية ، وارتفعت بعض الاصوات ، ودار صراع قصير ، ودوت صرخات الحاجب وظهر ظله على زجاج الباب وهو يرفع ذراعيه محاولا حماية الباب ، وهز سومفورد كتفيه وقال :

– استوضح الأمر يا صاحبي ...

وأسرع السكرتير العام معتزما معاقبة هذا الدخيل الذي سمح لنفسه باقلاق الرئيس وهو يعد الخطط لمعركة الدعاية ، وشمر عن ساعديه وفتح الباب فجأة فاختل توازن الحاجب ، وسقط على الارض داخل غرفة المكتب ، وساقاه وذراعاه تتخبط في الهواء ، وواصل سومفورد

املاءه :

– وكيلنا في البندقية : « استأجروا جسر التنهدات لكي ... »

وكثر اللغط والضجيج خارج الغرفة ، وبدا أن الدخيل انتصر اذ دفع الباب بعنف ، ولمح سومفورد سترة زرقاء وساقا جميلة في جورب حريري وحذاء فاخرا ، فلاحت على وجهه ابتسامة عريضة وصاح :

– ادخلي يا بنيتي ..

ودفعت الفتاة الباب بعنف وأغلقته ، واندفعت كالعاصفة وهي تحمل كلبا تحت ابطها كان ينبح بشدة ، وممسكة بيدها الاخرى حزمة من الجرائد كانت تلوح بها في هياج وغضب .. أما سومفورد فقد واصل املاءه

« وكيلنا في باريس : استأجروا قبة كنيسة القلب المقدس لكي ... »

ولم يتسع له الوقت لاستكمال عباراته لان الفتاة وضعت كلبها على الارض واندفعت نحوه وقذفت بالجرائد تحت انفه وهي تصيح

– انظر يا أبي .. اقرأ ..

وأشارت بأصبعها الى مقال ، فاربد وجه سومفورد بعد أن كان فرحا بمجيء ابنتـه ، اذ أحس بأن في الأمر شيئا ، وامسك بيديها الرقيقتين يلاطفها ويسألها في هدوء :

– ما الخبر يا ابنتي ، وما الذي حل بك ؟ هل صدمت أحدا أم تعطلت سيارتك ؟ هل مرض كلبك أو ضيعت عقدك اللؤلؤي ؟ آه ، اعتقد .. بل أراهن على أني أعرف الحقيقة الآن .. لقد انذرتك وصيفتك بترك الخدمة بعد اسبوع .. أليس كذلك ؟

فقطبت الفتاة حاجبيها وقالت في لهجة حادة :

– دع المزاح جانبا يا أبي ، والاولى بك أن تقرأ هذا ..

وبسطت الصحيفة تحت أنظاره ، فحولها الى السكرتير العام قائلا : — ارجوك .
وما أن بدأ السكرتير العام في القراءة حتى انتزعت اديث الصحيفة من يديه وقالت :
— لا داعي لذلك ، اني أحفظ المقال عن ظهر قلب ، هاك هو ..
وراحت تلقيه على مسامعه دون أن تلتقط انفاسها :
« جاءتنا الانباء من بيارتز في فرنسا عن خطوبة الانسة ماي سبيتسون الحسناء الى الكونت لابريج ، الفيلسوف والاديب المعروف ، وسيتم الزفاف في قصر آل لابريج بمقاطعة « جالفارني » ، وكونتيسة لابريج الجديدة هي ابنة السيد جوناس ج . جيمس المحترم ، صاحب ورش طلاء السيارات » ..
— هاك الخبر يا أبي .. انه الآن حديث الناس جميعا . نشرت صحيفة تايمز عامودا كاملا عنه وقالت « نيويورك هيرالد » ، ان السيد لونجليفي ، العالم الشهير ، هو خال الخطيب وسيكون أحد شهود الزواج ، وقدمت « شيكاغو تربيون » ملخصا لمؤلفات الكونت ، ونشرت صحيفة « ورلد » بيانا عن شجرة الاسرة .. فما قولك الان في كل هذا ؟ » .
وقطبت اديث حاجبيها ، وبان الغضب على محياها وهي تتكلم بصوت مكبوت :
— نعم يا أبي .. وكل ماتملكه ماي سبيتسون هو مهر لا يتجاوز عشرة ملايين دولار ، وانا اعرف تماما أن مقاس أحذيتها هو ٣٩ فنحن نتعامل مع نفس متجر الاحذية ، وفضلا عن ذلك فان طبيب الاسنان الخاص بإحدى زميلاتي يؤكد انه ركب لها زوجا من الاسنان الصناعية الذهبية ..

وتعالى صوتها ، وفزع الكلب « كنج تشارلز » فبلل البساط الذي يغطي أرض غرفة المكتب .
— وهكذا تراني اتساءل يا أبي ، ما الفائدة من ان أكون ابنة الميلياردير هنري د . سومفورد الذي يملك ثلاثة عشر مصنعا في انحاء البلاد ، ومائتي متجر ، وله ستة عشر وكيلا عاما ، وثمانون مزرعة في أمريكا ونيوزيلندة وبورما وافريقيا ، وخط حديدي خاص وستة مصارف لتولي اعماله ، ونسخة طبق الاصل من كنيسة المادلين الباريسية في قصره .. ما الفائدة من كل هذا ، وابنة صاحب ورش طلاء السيارات تتزوج من ارستقراطي نبيل ! !
وكثر الهمس حولها ، فلم يسبق لسومفورد أن تعرض لمثل هذا التعنيف ، ووضح من الرجفة التي انتابت الحاضرين مدى القلق والاهتمام الذي يعلقونه على اجابته . وواصلت اديث حديثها :
— أن جوان فيلياس فوج تملك اصطبلا لجياد السباق ، وقد احتل جوادها المركز الثالث في سباق « دربي ابسوم » ، وتملك ريبيكا ونتر يختا لرحلات النزهة والترفيه وصلت به حتى مضيق بهرنج ، وعبرت أيدا برنابوث المحيط الاطلنطي بطائرة في صحبة والدها ، وأما انا .. انا ابنة سومفورد الذي تقدر ثروته بثلاثة آلاف وخمسمائة مليون دولار فلا ذكر لي ولست أملك شيئا .. سأتزوج على الاكثر من كبير الخدم ، او حارس الباب في بيت من بيوت العائلات .. وذلك اذا رقت لاي منهما ..
ودق سومفورد الذي كان يحاول الكلام بقبضة يده على مكتب فتطايرت الاوراق وصاح :
— ولكن .. قولي لي بالله عليك .. ما الذي تريدينه ؟
— أريد ان يقال : « هاكم اديث سومفورد » ، انها

تتزوج من شخص عظيم .. من شخصية يرجع تاريخ أسلافها النبلاء الى أقدم العصور ، .. اذ ما الفائدة من وكيلكم فى باريس ؟ أهو هناك ليبيع لحوم البقر المحفوظة ، أو لحوم العجول المطهوة مع الجزر ؟

وسارع سومفورد الى اغتنام الفرصة للتخلص من ورطته :

— وكيلى فى باريس ، ولكننى يا فتاتى كنت الآن بالذات مشغولا بالكتابة اليه ، أليس كذلك يا آنسة ؟

وأمنت السكرتيرة على كلامه ، وواصل حديثه بلهجة الانتصار :

— أترين الآن يا أديث مدى طيشك وتهورك لاعتقادك انى لم أقرأ الصحف .. والاحرى بك أن تطلبى الى سكرتيرتى قراءة نص خطابى الى الوكيل .

وسارعت السكرتيرة الى القراءة :

« الى وكيلنا فى باريس : أرجو استئجار كنيسة القلب المقدس فى مونمارتر ...

وهنا تدخل سومفورد بسرعة وواصل القراءة بدون توقف .

« للاحتفال فيها فى أقرب وقت ممكن بزفاف ابنتى أديث الى .. الى » .. ولا أدرى الآن الى من ، ولكننا سنتصل بالوكيل تليفونيا .

وأشار الى السكرتير العام فخرج واختفى ، وبدا على وجه أديث شىء من الانشراح ، سرعان ما تحول الى ابتسامة واقتربت من والدها وطوقت عنقه بذراعيها :

— أصحيح انك قرأت الجرائد ؟

ووضع سومفورد يده على قلبه ، ورفع نظره مستشهدا بالسماء :

— قرأت الجرائد .. والله ما فعلت غير ذلك .. قرأتها كلها ..

وأشار الى الجرائد المكدسة أمامه :

— عندما قرأتها غلى الدم فى عروقى ، وثقى يا فتاتى انه لو انك حدثتنى عن هذا الامر فى هدوء ونحن جلوس الى المائدة ، لكنت أسر بأن أثبت لك أن أباك العجوز يشعر سلفا بأدنى رغباتك ويعرفها ، ويبتهج بابلاغك نبأ خطوبتك الى السيد كذا وكذا بمكان يا .. انك مخطئة فى عدم ثقتك بى .

وجلس سومفورد متراخيا أمام مكتبه بينما جمد الموظفون فى أماكنهم وقد أذهلهم تصرف رئيسهم وحضور بديهته ، وتشابكت أيدى أديث بيديه وأخذت تتحدث بدون توقف :

— أرجو عذرا يا أبى ، ولكنك لابد أن تفهم انه اذا قابلتنى أبدا بارتوبوث وسألت : ما هذه السيارة التى تركبينها : أهى سيارة السباق الجديدة ؟ لابد وانك تشعرين بالضيق والملل من التنزه فيها وحدك ، أليس لك من تصحبينه معك ؟ فان موقفى سيكون فى غاية الحرج اذ بماذا أجيب عندئذ ؟ أليس ذلك بالشىء المخجل ؟ .. ثق يا أبى العزيز ان تلك سيكون له أثره عليك وعلى ، فمثل هذا الخبر قد يرفع أو ينزل سعر أسهم سومفورد ثلاثين بنطا على الاقل فى البورصة .

وعاد السكرتير العام الى المكتب وقال :

— أحيط الوكيل فى باريس علما بالامر ، ويمكنكم طلب محطة راديو — فرنسا ، وهى غير مشغولة وسيكون الوكيل هناك فى انتظاركم .

— حسنا

ووقف سومفورد واتجه نحو قطعة من الاثاث تزينها

زخارف نحاسية وفتحها فظهر داخلها جهاز للاسلكي للارسال على الموجات القصيرة يتصل بمحولات في أسفل المبنى وجهاز آخر للاستقبال ، وسمع أزيزا خفيفا ، وانحنى سومفورد على ميكروفون أمامه ونادى : آلو ..

وأجاب صوت بعيد ولكنه واضح :

ــ آلو .. هنا راديو ــ فرنسا .. سأصلك بالسيد سميث ، وكيل شركة سومفورد ، وعاد الأزيز في آذان الحاضرين الذين علت وجوههم الدهشة لهذا المنظر العجيب . والتفت سومفورد الى أديث التي كانت تحاول اخفاء تأثرها وقال :

ــ والآن يا فتاتي .. ما الذي تريدين أن أطلبه ؟

ــ أذكر شعارنا يا أبي .. الاجود دائما .

ــ حسنا .. آلو ؟

ــ آلو .. هنا سميث ، هل من تعليمات جديدة ؟ .. لقد أسرعت بالنهوض من فراشي .. كنت راقدا وعلى وشك النوم .

ــ وما أهمية ذلك ؟ هنا سومفورد .. اسمع يا سميث ، طلبتك لأني أريد أن أزوج ابنتي .. ممن ؟ هذا شأنك .

وردد الجهاز همهمة تدل على الدهشة ، أعقبها صمت طويل ، وانحنى سومفورد على الميكرفون :

ــ آلو ! سميث .. هل صحوت أم ما زلت نائما ؟ .. قلت لك اني أريد أن أزوج ابنتي في أقرب وقت ممكن .. ممن تظن ؟ أجب .

ــ ان الوقت متأخر أو مبكر بعض الشيء للتفكير في مثل هذا الأمر ..

ــ وما أهمية ذلك ! وما رأيك أنت يابنتية ؟

ــ ان وكيلك غبي ، قل له قبل كل شيء اني أريد من هو أفضل من « كونت » .

واعاد سومفورد على الوكيل ما قالته بامانة ، واهتز الصوت من الطرف الآخر :

ــ حسنا ولكنني لا أعرف اي مركيز ، والامراء الروس لم تصبح لهم قيمة .. والافضل دوق أو أمير من فرنسا ، ولكنهم أصبحوا مع الاسف نادرين ، لقد اشتد عليهم الطلب ، ولكن العرض أصبح نادرا في السوق ، وسأبحث على أية حال .

ــ دوق .. آه يا أبي دوق .. كم يكون ذلك جميلا !

ــ حسنا .. ليكن دوقا .. كم يتكلف ذلك ؟ مائة الف دولار .. ؟ مليون دولار ؟ مليونان من الدولارات .. ؟

ــ لا أعرف فلم يسبق لي أن قمت بمثل هذه المهمة .

ــ سيان عندي .. ابحث .. هذا شأنك ، والا فانني سأبعث بوكيل آخر الى باريس .

وطال الصمت ثم علا صوت يخامره اليأس :

ــ لا .. لا .. سأقوم بالمهمة .. وسأبعث ببرقية في أقرب وقت .. آسف جدا .

ــ حسنا ، الى اللقاء يا سميث ، تناول قليلا من القهوة .. فانها تنبه ، انتظر انباءك في أقرب وقت .. اياك والنسيان .. أسامع أنت ؟

ــ نعم ، يا سيدي .

وانتهى الاتصال والتفت سومفورد الى ابنته وسألها :

ــ أراضية أنت الآن يا بنية ؟

فتقدمت الفتاة بجبهتها الى شفاه أبيها وقالت :

ــ أنت خير الآباء ، وأنا أحبك وأفخر بك .

وأسرعت الى الباب على الفور واستدارت قائلة :

ــ الى اللقاء يا أبي . كأنك لم تقابلني فاني لم أمكث سوى لحظة قصيرة . أتمنى لكم نهارا سعيدا يا سادة .

وانحنى الجميع رادين تحية الهاربة التي تبعها كلبها

مسرعا ما أمكن بسيقانه القصيرة ، وعبرت أديث الغرفة الامامية مخلفة وراءها كومة من الصحف المبعثرة ، وأباها الذى انتابته نوبة من الضيق والقلق ، والموظفين الذين علت وجوههم سمات الدهشة والاعجاب ٠

وأخرج سومفورد منديله من جيبه بعد خروج الموظفين ، وجفف به العرق الذى تكاثف على جبينه ، واسترد هدوءه شيئا فشيئا ، ثم التفت الى سكرتيرته :

ـ لقد أضعنا عشرين دقيقة ، فلنعمل الآن ٠ « الى وكيلنا فى طوكيو : استأجروا ٠٠ »

ولنعد الى السيد سيدنى و ٠ سميث المحترم ، الوكيل الامريكى لشركة سومفورد فى باريس ٠ انه بلا شك أمضى بعد خروجه من محطة « راديو ـ فرنسا » ليلة عصيبة لاتخلو من الارق والقلق ، وليس غريبا أن تراه عصبيا منحرف المزاج فى الصباح ، فقد دفع باب المكتب فى عنف ، والقى نظرة غاضبة على الادراج التى تحوى مراسلاته ، ثم أشعل سيجارا واستلقى على مقعده كعادة الوكلاء والمديرين ورجال الاعمال الذين يزاولون اعمالا مماثلة ٠

ودخل الموظف وبيده بريد اليوم وفوجىء بوجود سميث ٠

ـ انت هنا يا سيدى ٠٠ ان الوقت لم يزل مبكرا ٠

ونظر اليه سميث ساخرا :

ـ مبكر ؟ ٠٠ الا فاعلم أيها الفتى أنى غادرت الفراش قبلك بزمن طويل للقيام بمهمة خاصة لعينة وهى ٠٠ انها على العموم لا تهمك ولا شأن لك بها ٠

واحمر وجه الفتى لدى سماعه هذا القول وقال فى خجل :

ـ طلبت مخازن أوبرفيل تليفونيا عشرة آلاف علبة من لحوم البقر والخنزير والارانب ، وهاك الطلب ، على أن يتم التسليم خلال ثلاثة أشهر ٠

ـ وما أهمية ذلك عندى ؟ قيد الطلب ٠

ـ حسنا ياسيدى ٠٠ كتبت الشركة الغربية للحوم البقر المثلجة من مرسيليا تقول : انها قررت منح مكافأة قدرها ٣ فى المائة للوكلاء عن الطلبات التى يتقدمون بها ٠

ـ لا قيمة لذلك عندى ٠٠٠ اكتب الى شيكاغو ٠٠٠ سنعلق ٠٠٠

ـ ولكن ٠٠

ـ كفى ٠٠ قلت لك أن كل هذا لا يهمنى ٠٠ انك هنا لمثل هذه الامور ٠٠ فاهتم بها ٠٠ هل الانسة جوزيان ، العاملة على الآلة الكاتبة ، موجودة ؟

ـ نعم يا سيدى ٠

ـ نادها ٠٠

ـ اتريدها لبريد اليوم ٠٠ ؟ انك لم تقرأه بعد ياسيدى ٠٠٠٠٠

واحتقن وجه سيدنى وسميث واحمر ، وضرب بقبضة يده على المكتب وصاح فى غضب

ـ الم تسمع ماطلبته منك الآن ؟ الآنسة جوزيان هنا ٠٠ اليس كذلك ؟ هذا هو المهم ٠٠ أخرج ٠

وخرج الموظف مؤثرا السلامة ، بينما راح سيدنى و٠ سميث يحدث نفسه

ـ هذه الضفدعة اللعينة ٠٠ ستودى بعقلى ٠٠ اى والله !

وضاع باقى الحديث فى غمغمة غير مفهومة ، وكان الموظف أثناء ذلك يخاطب الانسة جوزيان فى الناحية الاخرى وهو يرتجف ٠

ـ لقد حل دورك يا آنسة فاحذري انه ثائر هذا الصباح وفي حالة سيئة ‥ ما أصعب العمل هنا ‥ ! يبدو انه لا يحتفظ بالموظفين طويلا في هذا المكتب ‥ انه أشبه بسوق يعمها الهرج ‥

ورفعت الآنسة جوزيان حاجبيها ، وهزت رأسها ، وتدلى شعرها الاسود القصير حول وجهها ، وابتسمت في ثقة واعتداد :

ـ كل هذا لا يهمني يا عزيزي فأنا مطلوبة لتمثيل دور النجمة في أحد الأفلام ‥ واذا كنت الآن باقية هنا ، فما ذلك الا لضعف صحتي .

واتجهت في خطى وئيدة الى صوان أخذت منه كراسة للاختزال وسارت نحو مكتب الرئيس ودخلت في هدوء .

ـ سيدي ‥

وأشرق وجه سميث ، وأشار الى مقعد قريب منه

ـ اجلسي يا عزيزتي الآنسة جوزيان ؛ اني حقا سعيد برؤياك .

وانتاب الفتاة شيء من القلق لهذه القدمة ، فقد توجهت في اليوم السابق الى متجر « جاليري وشنطن » الذى أعلن عن فرصة لبيع البياضات ، وتغيبت عن الحضور الى المكتب ، وقالت وهي تتباكى وتتنهد

ـ صدقني يا سيدي لقد كنت بالامس مريضة .

ولم يفهم الوكيل ما تعنيه .

ـ أنا آسف ‥ هذا مؤلم حقا ‥ أتشعرين بتحسن اليوم ؟ ‥ وبهذه المناسبة هل لك معارف واتصالات يا آنسة جوزيان ؟

ـ طبعا ‥ مثلي مثل كل الناس .

ـ حسنا ، فلا شك اذن في أنك تعرفين بعض الشخصيات الباريسية الراقية الراغبة في الزواج .

وذهلت الآنسة جوزيان وفغرت فاها دهشة

ـ هذا يعني ‥ آه ‥ أنا لا أعرف ‥

ـ أما أنا فأعرف ‥ لابد أن أحصل حتى ظهر اليوم على الاسم والعنوان لدوق فرنسي يريد الزواج ‥ حتى الظهر ‥ ولك مني مائة دولار اذا نجحت في هذه المهمة فيما بين الساعة الحادية عشرة والحادية عشرة والنصف ‥ ومائة وخمسين دولارا اذا انجزتها قبل هذا الموعد هذا هو كل ما أريد .

ـ ولكنني ‥ آه ماذا أقول ‥ ؟ من أي نوع ؟ ان النبلاء الذين يحملون لقب الدوقية كما تقول ‥ ليسوا ‥

ـ الامر في غاية البساطة ‥ دوق ‥ في حوالي الثلاثين من عمره ، حسن المظهر ، وفقير اذا أردت ليتزوج ابنة سومفورد التي تريد الزواج من شخص ما ‥ هذا هو المطلوب ‥ واني أترك لك مطلق الحرية في التصرف ‥ لقد استنفدنا كثيرا من الوقت .

وفكرت جوزيان لحظة ثم قالت :

ـ الواقع اني أعرف شخصا قد يتمكن من العثور ‥

ـ سيان لدي ما تفعلينه ‥ المهم هو ان تنجحي في مهمتك .

وأشار سيدهى سميث بانتهاء الحديث ، وعندما اتجهت الفتاة الى الباب أردف قائلا :

ـ انا اعتمد عليك كلية . قالت ، المرأة المناسبة في المكان المناسب » . وكلي ثقة فيك .

وخرجت جوزيان وتناولت سترتها وقبعتها أمام الموظف الذى عقدت لسانه الدهشة :

ـ أتخرجين ثانية ؟ ‥ ما معنى هذا ولكن ‥

ـ قلت لك يا عزيزي انك لا تفهم السياسة ، كان السيد

سميث في منتهى اللطف معي كمادته أن لي اتصالات هامة .

ووقفت تصلح زينتها بينما وقف الموظف ذاهلا ورافعا يديه الى السماء :

– ولكن .. البريد .. سيتحتم على ايضا أن اقوم باتمامه .. وليس من اختصاصي العمل على الآلة الكاتبة .

– وهل تعتقد أن هذا يهمني .. ؟ وماذا اذا فضلت ترك هذه السوق أيكون هذا من شأني .

وفتحت الباب ولوحت لزميلها بتحية رقيقة .

– هكذا تبدأ البيوت الكبيرة ياعزيزي ، الى اللقاء .. أريد تغيير الهواء .. ان الطقس بديع حقا .. واذا أردت أن تقدم لي شيئا عند « بيري » ستجدني هناك حوالي الساعة الحادية عشرة .

وخرجت واتجهت الى المصعد ، وعندما وصلت الى الطابق الارضي طلبت سيارة أجرة وركبتها وقالت للسائق شارع ماربيف .. رقم ١٧٥

واخذت جوزيان تناجي نفسها والسيارة تنطلق بها

– آمل ان أجد هذا الحقل كريبان في محله وليس في المقهى غارقا في اللعب ، ان مائة وخمسين دولارا تساوي اربعة آلاف فرنك ، وهي مبلغ طيب بسعد صاحبه ، ان الحياة جميلة .. جميلة حقا .

وتوقفت السيارة أمام مبنى ضخم ، ونزلت الفتاة منها واتجهت الى المدخل ورأت لوحة نحاسية مثبتة عليه مكتوبا عليها وكالة فيتيبيان – جميع الابحاث . أسست عام ١٨٠٢ – الدرج حرف « س » في نهاية الفناء – الدور الرابع الى اليمين .

– هذا هو المكان

واثناء ذلك كان سيدني سميث يفكر في متاعب المهنة وهو يدخن غليونه ويحشوه المرة بعد الاخرى ، ودق جرس التليفون فجأة فتناول السماعة وسأل بصوت أجش

– ما الخبر ؟

– وسمع صوتا من الطرف الآخر ازال ضيقه وأبهجه اذ لاحت على وجهه ابتسامة

– حقا .. أنا سعيد جدا يا آنسة جوزيان ، أصحيح انك وفقت .. كم انا سعيد .. ! وماذا تم ؟ وتناول ورقة وقلما بسرعة .

– انني استمع لك . ماذا تقولين دوق ب . و . ر . ب . و . ن . دوق حقيقي من سلالة ملوك فرنسا عن طريق الام .. عظيم جدا .. وينتهي نسبه الى الملك لويس الخامس عشر بوربون دامبكور .. نعم ، نعم .. لقد سمعت .. عدة ملايين من الديون ان عزيزنا سومفورد موجود للسداد نعم .. ستقدمينني للدوق على الفور .. في سبتمبرا ؟ حسنا وساعد الشيك على الفور طبعا .. أشكرك والى اللقاء يا آنسة جوزيان .. جملة القول باختصار هي : الدوق بوربون دامبكور ٢٨ سنة .. اسرة نبيلة عريقة من جاسكونيا .. أليس كذلك ؟ ... ستكونين وصيفة الشرف .. أتمنى لك حظا سعيدا ..

وانتهت المكالمة وفرك سميث يديه واسر لنفسه ايضا .. وحظ سعيد لي انا الآخر .

وعاد الى التليفون وطلب « راديو – فرنسا » .

– نعم .. هنا سميث ... اطلبوا لي مصانع سومفورد في شيكاغو او قصر ماجدالا .. طول الموجة : ٣٥ و٣ م .. ساتصل اليكم حالا .

وهب واقفا وارتدى معطفه وتناول قبعته وخرج مسرعا من المكتب دون ان يستمع الى شكوى الموظف المسكين

وقفز داخل المصعد واخذ يتململ من هبوطه البطيء حتى الطابق الأرضي وهو يقول : ان المصعد السريع فى مبنى وولورث بنيويورك لا يستغرق اكثر من هـذا الوقت للوصول الى الطابق الرابع والعشرين .. ايه ياقرفنـا الصغيرة .. من حسن حظك ان كل نبلائك لم يغادروك والا فما الذى كان يتبقى لك بدونهم ... ؟

وانتهى سومفورد من تناول الطعام مع ابنته واراد ان يتركها لتنام ليتفادى اجابتها للمرة المائة بانه لا يتحكم فى الوقت ، ولا يدرى متى يستطيع سميث ان يرد عليه فشرب قهوته واراد التوجه الى « قصر ماجدالا » ليأوى الى غرفته فسألته ابنته فى وداعة :

ــ الى اين انت ذاهب يا ابى العزيز ؟

ــ الى فراشى كالعادة يا فتاتى الصغيرة ..

ــ أليس امامك وقت كاف للنوم ؟ ...

ولم يحاول سومفورد اخفاء عدم ارتياحه الى الحاح ابنته وقال :

ــ ولكن ، الا ترين ان الوقت متأخر بما فيه الكفاية ؟

ــ متأخر بما فيه الكفاية ؟ .. اتقول ذلك يا ابى فى هذا اليوم .. او فى هذه الليلة التى تتوقف عليها سعادتى ؟

ــ ولكن

ــ فكر يا ابى .. انك تريد التخلى عنى فى اهم يوم .. او فى اقسى واصعب لحظات حياتى .. اتعتقد ان نابليون الذى كنت تتحدث عنه وانت تحتسى قهوتك كان يفعل ذلك ؟

ــ ان نابليون لم تكن له ابنة يا عزيزتى .

ــ ولكنه كان احق بان تكون له ابنة .

وعاد سومفورد الى مقعده الجلدى بجانب مائدة طراز لويس الخامس عشر اذ كان المسكن مؤثثا بافخر الرياش ، وامضى الاب مع ابنته ثلاث ساعات طوال لا

يتبادلون كلمة واحدة ولا يقطع السكون حولهما الا ازيز مكبر الصوت لجهاز اللاسلكى وكانت اديث تلتفت الى ابيها المرة بعد الاخرى وتسأله عما اذا كان احد قد تحدث .

ــ كلا يابنيتى .. ان الجرس لم يدق .

ــ اذن فوكيلك ابله لا ترجى منه فائدة .

ــ لقد اوضحت لك يا اديث ان ....

ــ وماذا بعد ذلك ؟ ماذا لو عرف الناس ان ملكة المليارات اضطر الى الانتظار اؤكد يا ابى ان نتيجة ذلك ستكون التدهور والضياع .

واحس سومفورد بشىء من المرارة ، وتناول سيجارا آخر من جيبه واشعله واخذ ينفث الدخان فى هدوء . وفجأة دوى صوت فى اعماق الغرفة .

ــ اسرع يا ابى . هاك هو الجرس يدق اخيرا .

وسارع سومفورد الى جهاز الاستقبال اللاسلكى ، وحالت الشوشرة دون سماع الكلمات الاولى ثم سمع صوت سميث واضحا

ــ الو .. هنا سميث .. لقد وجدته

وانحنت اديث على فوهة الميكروفون .

ــ ماذا .. من ؟

ــ الو .. أهذه هى الانسة اديث .... خادمك المطيع .. لقد وجدته .... خطيبك ، اسم الدوق دى بوربون .. انه ينحدر من سلالة الملك لويس الخامس عشر .. انه يدعى الدوق دى بوربون دامبكور ، عمره ٢٨ سنة ، وسيم وجميل ، ولكنه فقير وغارق فى الديون التى تقدر بما بين ستة وسبعة ملايين .. ان تكاليف الشعار الذهبى باهظة فى الوقت الحاضر .

والتفتت اديث الى والدها :

- هذا شأنك يا أبي .
- أعرف ذلك يا حبيبتي .
وعاد الصوت الى التحدث بلهجة مرتفعة غريبة بسبب التقلبات الجوية .
- توفي والد الدوق منذ قرابة عشر سنين بعد حياة حافلة بالاسراف والتبذير وشعار الاسرة « الامانة والاخلاص » منقوش على درع من الميناء الزرقاء والذهب الخالص .
- مدهش .. بديع ... عظيم .
- آلو .. اتفقنا على أن أراه الآن وقد تركت له خبرا لكي يلحق بي هنا ، وفضلت أن أحضر هنا قبله لاعطائك بيانات قد تؤثر عليه لحساسيته وشعوره المرهف .
واستدارت اديث وعانقت والدها :
- أبي انه له شعارا كزوج ماى سمبنسون .
وهز ملك اللحوم المحفوظة كتفيه .
- أعرف ذلك ... أعرفه وأفهمه .. ولكنني من ناحيتي أفضل للكفاح من أجل الحياة مسدسا « طراز كولت » عيار ٣ الى ٥ مليمترات ، وعلى العموم كل مايعمل ما يستطيعه .. آلو .. أهذا أنت ياسميث .. سأبعث لك بمبلغ مائة الف دولار للمصاريف الاولية ، مر على المصرف ..
- حسنا ، سأمر ياسيدي .. وماذا افعل بشأن قصر والد الدوق القديم ؟
- اشتره .. اشتره مع باقي الاشياء ، واذا دعت الحاجة يمكن اقامة مصنع فيه .
- سمعا وطاعة .. نسيت ان الدوق في فترة حداد ، فقد توفيت والدته منذ وقت قريب .
وقالت اديث في صوت يشوبه الاسى :

- ياله من شيء اليم .. سميث بلغ عزائي ومشاطرتي الاحزان لهذا النبأ المفجع
- سأفعل يامس اديث .. واعتقد ان الدوق سيتأثر بذلك كثيرا .. سأعود للاتصال بكم بعد لحظات .
- شكرا ياسميث ، واتمنى لك التوفيق .
- انه ليسعدني ان ابذل كل مافي وسعي لارضاء الرئيس العزيز ، ولخدمة مصانع سومفورد العظيمة .
وسكت جهاز الاستقبال فالتفتت اديث الى والدها الذي وضع عويناته وبدأ في تدوين بعض الملاحظات في كراسة صغيرة .
- أبي .. انني أحبك .. انك نعم الاب العزيز اللطيف ككل الاباء الامريكيين الكبار .. أصحيح انني سأصبح دوقة .. ؟
وضغطت بيدها على زر لجهاز الراديو فعلت نغمات انشودة حلوة هادئة ، واخذت اديث ترقص رقصة « التانجو » على انغامها بينما والدها يراقبها باسما .
- اسمعي يا اديث .. اتعتقدين ان الدوقات الفرنسيات يرقصن التانجو .. ؟
لابد وان العجوز العزيز لويس الخامس عشر يتقلب تقززا في قبره .
وما كان لحمام بارد ان يهدئها مثلما هدأتها هذه الكلمات ، فاسرعت الى جهاز تليفون تخفيه قطعة من الاثاث .
- لا تهزأ بي يا ابي العزيز العجوز .. انى اريد أن أعلن النبأ لاصدقائي .
وراحت في حديثها التليفوني تعلن نبأ خطبتها السريعة لجميع اصدقائها في شيكاغو وتحدثت عن خطيبها واسرته وانتمائه الى ملوك فرنسا .. وسردت كل ما عن لها من

تفاصيل بيتها كان والدها يستمع اليها .

ورن جهاز الاستقبال اللاسلكي فجأة ،فقطعت اديث حديثها واسرعت الى الجهاز ، وانحنى سومفورد عليه مستمعا .

— الو .. نعم .. هنا الموجة ٣٢٫٢٥ متر .... أهذا أنت ياسميث؟

وسمع صوت الوكيل واضحا تشوبه لهجة الانتصار .

— نعم .. انا سميث .. أرجوك ضبط المؤشر والنظر الى شاشة الراديو .. ان الدوق بجانبي .

وفتح سومفورد الجزء الاسفل من الصوان فظهرت مرآة محدبة وتعلقت اديث بذراع والدها ...

— أهذا اختراع حديث ؟

— نعم يابنية .

— الو .. سانقل الميكروفون الى سيادة الدوق .

وانقطع صوت الوكيل الواضح ، وحل محله صوت موسيقي ناعم تنقصه الرجولة بعض الشيء .

— الو .. هنا شارل دوق دي بوربون دامبكور .. الثالث عشر بالنسبة للاسم ..

— الو .. هل لي الشرف بان أتحدث الى الآنسة اديث سومفورد ؟

— نعم ياسيدي .. انا اديث سومفورد .

— اتقدم اليك يا آنسة باسمى آيات احترامي .. لقد اردت منذ اللحظة الاولى ان أؤكد لك مشاعر حبى العميق وآيات شكرى لتفضلك بقبول مكالمتى الاولى التى سيعقبها بلا شك أقصى ما يمكن ان أعلم به من سعادة .. انى أعرف ان جمالك وسحرك أحزنا الكثيرين ممن لم يحوزوا رضاءك . واني لاسمح لنفسي والخوف يخالط كبريائي بان اطرح اسمي ولقبي وتاجي على اقدامك ، وهي كل ماتبقى

لى فى هذه الدنيا واما قلبى فلم يعد ملكا لى ..

واستمعت اديث مذهولة الى هذه العبارات التى لم تفهمها تماما ، لانها لم تتطلع الى هذا الزواج حتى الآن الا من وجهة النظر الامريكية العصرية .

واستمر الصوت فى ازجاء المديح والثناء فى اسلوب رقيق ينساب فى سهولة وكأنه درس لقن ليتلوه أبرع الممثلين فى نيويورك .

وتعكر بريق المرآة الموجودة اسفل الميكروفون وعلتها غمامة أخذت تتبدد فيما بعد ثم ظهرت صورة غامضة اخذت خطوطها تتضح تدريجيا ، وبدت اخيرا صورة النصف الاعلى من الدوق جلية واضحة فى الدائرة السحرية .

— ياله من جميل وسيم الطلعة ، أليس كذلك ياأبى الحبيب ؟

— نعم .. نعم

شعر أسود جميل ، ووجه نحيل تبدو فيه الفتوة والشباب وشارب مدبب ومونوكل ثبت على العين اليمنى .. ورفع الدوق يده الى فمه وبعث بقبلة عبر الفضاء تعبر عن حبه وولائه وارتفع صوته ثانية :

— ارجو عفوا ياآنسة ، ان هذا الولاء المنطوى على الاحترام والعواطف الجياشة انما يعبر عن الاخلاص العميق الذى أكنه لك . وما هو الا مقدمة لمشاعر اخرى أعمق وأجل ، ولا عيش لى حتى ذلك اليوم الذى أرى فيه الى جانبى تلك التى وهبتها حياتى .

واخذت الصورة تضمحل شيئا فشيئا حتى اختفت تماما ، وعادت المرآة الى صفائها ، وبلغ التأثر باديث حدا لم تجرؤ معه على النطق بشىء . واستطاعت اخيرا ان تقول :

— هذا غاية فى اللطف منك ٠٠ وقد تأثرت كثيرا ٠٠ سآخذ أول باخرة ، وآسف جدا لان الاتصال بين أمريكا وفرنسا فيه شىء من الصعوبة ٠٠ واعتذر لك ٠٠ واحس باننا سنكون سعداء ٠٠ سعداء جدا ٠

وانتهى الحديث وتناول سميث الميكروفون ثانية ونادى :

— السيد سومفورد ٠٠ اموجود انت ؟

— نعم ياسميث ٠٠ ما الخبر ؟

— الاتصال ونقل الصورة باللاسلكى يتكلف عشرة آلاف دولار ٠

— حسنا ، قيد التكاليف فى الحساب ٠

وقطع سومفورد الاتصال بعد ذلك والتفت الى ابنته التى كانت متكئة على المائدة التى من طراز لويس الخامس عشر وهى شبه حالمة، وكان وجهها ذو الجمال الشيطانى الذى يتميز به الامريكيون تبدو عليه سمة التفكير ٠

— فيم تفكرين يا بنيتى ؟

ومسحت بيدها على جبهتها وكأنها تطرد فكرة تضايقها :

— أفكر يا أبى فى هذا الدوق ٠٠ انه يتكلم فى رقة وطلاوة ٠

وأجاب سومفورد باسما :

— اسمعى يا فتاتى ٠٠ انه يجيد الفرنسية على الاقل ٠

— ويعلم أيضا انى جميلة ٠

— فكرى قليلا يا فتاتى الصغيرة ٠٠ هل اعتقدت يوما أن ابنة سومفورد ، ومهرها يقدر بخمسين مليون دولار مضافا اليه الممتلكات القيمة الثابتة ، يمكن أن تكون قميئة ؟ لقد تخيل صورتك فى قاع علبة من لحم البقر

المحفوظ وأصبحت مثلة الاعلى ، وليس هذا بالغريب ، أنك حقا جميلة يا دوقتى الصغيرة ٠٠ فلا تهتمى كثيرا بذلك ٠

وتثاءب بشدة وتوقف عن الحديث ٠

— ان الوقت متأخر جدا ٠٠ الا يمكن ان تنام الان ولو لفترة قصيرة ٠٠ ؟ هذا طبعا اذا لم يكن لديك مانع ٠٠

وابتسمت اديث وسحبت والدها من ذراعه نحو الدرج :

— آسفة يا أبى ٠٠ انا سعيدة ٠٠ ولا حساب للوقت فى أمريكا امام السعادة ٠

ولم تمض عشر دقائق حتى كانت تتقلب فى فراشها باحثة عن النوم الذى تغلب عليها فجأة ، فغرقت فى أحلامها السعيدة ٠٠ وقفزت من فراشها بعد ساعات عندما أعلن أن الفطور قد أعد ٠ ونزلت فوجدت والدها يتناول فطوره ويتحدث فى التليفون ، فامسكت بدورها بجهاز تليفون آخر ، وأخذت العبارات غير المفهومة تتوالى أثناء الطعام ٠

— هالو ، اهذه انت يا ايدا ؟

— الشركة العامة لما وراء الاطلنطى ٠٠ مائة وتسعة من عشرة ٠٠ شارع ديربورن

— سأتزوج خلال اسبوع واحد ، عزيزتى ٠

— متى تبحر الباخرة باريس ؟

— انه رائع ٠٠

— غدا فى منتصف الساعة الثامنة ٠٠

— انه يقيم فى باريس ٠

— ينحدر من اسرة اشتركت فى الحروب الصليبية ٠٠ بكل تأكيد ٠

— نعم ٠٠ برفقة وصيفتها وخادمتها ومربيتها وكلبها ٠٠

– رائع . اليس كذلك ؟

– القلب ، القلب قبل كل شيء .. جناح فاخر .. حسنا ..

وانهى الوالد والابنة حديثهما سويا ، وابتسمت اديث :

– تكاد الغيرة تقتل ابدا برنابوث .

– وانت يا بنيتي العزيزة .. سترحلين غدا ، وتعقدين قرانك خلال خمسة عشر يوما ، وتعودين على ظهر اول باخرة لقضاء شهر العسل .. ان اوروبا لن تتسع لاحتواء سعادتك .. اليس هذا صحيحا ؟ .. اريد ان اتعرف على زوجك وارى مدى صلاحيته .

– ارحل غدا يا ابي ؟ ابمثل هذه السرعة ، وليس لدي ما ارتديه .

– ستشترين ما يلزمك من فرنسا ، لا تأخذي معك الا الضروري كما يقول كاتبنا العظيم مارك توين : هذا يكفي لبضعة ايام ..

وعانقت اديث والدها ، ووثبت على الدرج وطارت الى غرفتها حيث اختفت ، وتبعها سومفورد بنظراته وهو يبتسم مبتهجا :

– يا للصغيرة المسكينة .. ! انها تدفع الان لفرنسا الضريبة عن بطولة لافاييت .. ستدفع .. وادفع .. ومهما يكن فانني لحسن الحظ على ثراء يمكنني من دفع ثمن هذا البذخ والترف :

وسحب من جيبه مذكرة ، وتتبع باصبعه آخر الارقام المدونة فيها :

ديون الدوق : ٢٠٠,٠٠٠ دولار ، سفر ابنتي

ومصاريفها النثرية ٥٠,٠٠٠ دولار ، اتصالات لاسلكية ١٠,٠٠٠ دولار ، طوارئ مختلفة وغير منظورة .. كم ؟ التنقل ٣٠٠,٠٠٠ دولار .. الان المجموع حوالي ٦٠٠,٠٠٠ دولار ، هذا معقول وليس بالكثير وطوى المذكرة ودسها في جيبه ، وراح يفكر وهو يمصي طرف قلمه ، بينما كانت تترامى الى سمعه اصوات مبهمة تقطعها الضحكات من الدور الاول :

– مرح الشباب ..

وعبر الغرفة الامامية في هدوء وتوقف عند الباب وتناول قبعته ، ثم هبط الدرج حيث كانت تنتظره السيارة فانطلق بها ليباشر عمله كالعادة ، وتركزت افكاره على المصنع وحده الذي هو حياته .. وما ان وصل اليه حتى وجد السكرتير العام في انتظاره ، فالتفت اليه وقال :

– اسمع يا صاحبي .. سندفع ثمن العلبة زنة رطل سنتا واحدا .

وصعد بضع درجات ثم توقف وقال في صوت هادئ :

– تمت خطوبة ابنتي .. سنوزع على الموظفين والعمال منحا مالية بهذه المناسبة .. اليس كذلك ؟

ووقف على الشرفة يتأمل مصانعه المترامية الاطراف وهي تعج بآلاف العمال ، بينما يترامى الى السمع اصوات قطعان العجول والبقر ، وازيز الالات .. حقا ، انه ملك اللحوم المحفوظة بلا منازع ولا منافس .. واستدار فجأة وقال :

– حول مساء اليوم ٦٠٠,٠٠٠ دولار بالبرق الى سميث في باريس

وواصل الحديث : – اطرح في نهاية الشهر علبة لحم البقر المحفوظ ماركة « بوربون دامبكور » زنة نصفة

رجل .. هذا هو كل ما اطلب .. ارجو ان ينجح المشروع .

ومر من الباب الزجاجى الضخم .

ـ بوربون دامبكور ·· هل سمعت ؟ حسنا ، هذا هو اسم زوج ابنتى ·· واتجه الى المصعد وارتقاه ··

● ● ●

الفصل الثانى

كانت الباخرة « باريس » راسية فى ميناء نيويورك على الجانب الاخر من تمثال الحرية ، وهى تحتل مساحة كبيرة من الميناء لحجمها الضخم ، فطولها ٢٤٠ مترا وعرضها ٢٦ مترا ، وكانت محركاتها الاربعة ساكنة والمياه من حولها هادئة فى انتظار تحركها وانطلاقها فى أعالى البحار باقصى سرعتها التى تبلغ ٢٦ عقدة ·

وكانت الحركة حولها وعلى رصيف الميناء لا تهدأ ، فمن بحارة وخدم وموظفين دائبين على العمل فى الباخرة يحملون الحقائب ومختلف الاكياس ، والاوناش فى حركة مستمرة ترفع البضائع وتنزلها الى جوفها ، بينما كانت السيارات تصل الواحدة تلو الاخرى تحمل المسافرين اليها فى هدوء ونظام ·

وكان قبطان الباخرة يقودها للمرة الخامسة عشرة يعرف معظم المسافرين فوقف يحييهم ، يصافح الرجال ويقبل ايدى السيدات ، وسأله احدهم :

ـ من يسافر معنا هذه المرة ؟

ـ ليسوا كثيرين ، ولكننا فى انتظار فتاة شابة تسافر الى فرنسا لتعقد قرانها ·

ـ آه ·· شىء رائع ولكن من تكون هذه الفتاة ؟

ـ لا أعرف الكثير عنها ، ولكننى اظن أنها من شيكاغو ·

ـ من شيكاغو ــ اذن فهذه هى ابنة سومفورد ·

وتدخلت سيدة عجوز ترتدي قبعة بقناع اخضر من الحرير الشفاف في الحديث وقالت :

ـ أتقول اديث سومفورد يا عزيزي السيد بوتشيلية ؟ .. قرأت هذا الصباح في صحيفة « هيرالد » مقالا مطولا عنها ، كنت أعرف أمها العزيزة عندما كانت حالتها متواضعة .. هل الفتاة هنا ؟ ..

ـ لم تصل بعد .. وستبحر بعد عشر دقائق .. اذ يجب استغلال حركة المد والجزر ، ثم ان هناك شيئا اسمه النظام .

واستأذن القبطان والتفت الى احد الضباط الذي أتى لتلقى الاوامر :

ـ هل أعد كل شيء .. وهل المرشد وسفينته هنا .. وقائد الباخرة في مكانه ؟ ..

اذن فلنبحر .

قال ذلك بصوت عادي ، وكان المسألة لا تتعدى الانتقال الى احدى ضواحي كوني ايلاند .

ـ شيء واحد يا سيدي القبطان .. تلك الفتاة الشابة التي ..

ـ آسف ان الباخرة « ايل دي فرانس » ستبحر بعد خمسة ايام ، فلتنتظرها .

ـ ولكنها ابنة احد هؤلاء الاثرياء الكبار .

ـ سيان عندي ان يكون ثريا او عظيما ، فلست اريد التعطل والفشل من اجل طفلة مدللة .. ان الجميع وصلوا ، والساعة الان السابعة والدقيقة الخامسة والعشرون .. فلنبحر . وكان الواقفون على رصيف الميناء يتراجعون ورجال البوليس يدفعونهم الى الوراء حتى تقوم الباخرة بمناورتها للابحار ، ودوت صفارتها ودارت المحركات ، وسمع فجأة صوت بوق سيارة قادمة

من على بعد ، وأخذ المسافرون ممن كانوا على علم بالامر يتساءلون : هل تصل او لاتصل ؟

وظهرت السيارة وهي تشق طريقها وسط جموع السيارات والعربات بسرعة خاطفة .. كانت سيارة سباق ضخمة قوية تقودها يد ماهرة وتتبعها سيارة أخرى تحمل جبلا من الحقائب .

ونادى صوت من أعلى الباخرة بلهجة آمرة :

ـ اسحبوا السلم .

وبينما البحارة يهمون بسحب السلم الذي يصل ما بين الباخرة ورصيف الميناء ، بدت للناظرين في الوقت نفسه يد تلوح بعصبية ظاهرة من السيارة ، وكان لابد للوصول الى الباخرة من الدوران حول بالات من الصوف مرصوصة الواحدة الى جانب الاخرى مما يعطل السيارة في الوصول الى الرصيف ، وتحمس المسافرون ودوت اصواتهم بهتافات التشجيع .

واندفعت قائدة السيارة تشق طريقها وسط البالات في قوة وثبات ، فأطاحت ببالتين جانبا ، وتوقفت السيارة أمام السلم ، فوثبت منها فتاة وقفزت على السلم وهي تحمل حقيبة يدها وتتأبط كلبا صغيرا . وسقطت حولها حقيبتان او ثلاث قذف بها ركاب السيارة الاخرون بينما سقطت واحدة او اثنتان في الماء ، وغاب السلم في جوف السفينة بحركة آلية ، وهبطت منه الفتاة داخلها دون أن تخطو خطوة واحدة وكأنها احدى آلهات المسرح تدخل وتخرج بجهاز ميكانيكي خفي .. وهكذا خطت اديث سومفورد بدخولها الباخرة « باريس » اول خطوة على أرض وطنها المستقبل .

وظهر الساحل الفرنسي في صباح اليوم السادس بعد رحلة هادئة بديعة ، ووقفت اديث الى جانب القبطان وهي

تشاهد الارض الفرنسية تقترب منها ..

ــ انظرى يا آنسة .. ترين هناك اونفيلد .. والهافر وتروفيل .. انك تتلهفين على الدخول الى فرنسا هذا البلد الصغير .. صغير بالنسبة الى بلدكم ، ولكنه اغنى من اى بلد آخر ، لان كل حجر فى ارضه له ذكريات يرجع تاريخها الى قرون عديدة .

وبدات المدينة تتجلى باحيائها امام انظار اديث التى عرتها الدهشة الممزوجة بالاسف .. كانت تتطلع الى رؤية العجائب والغرائب ، ولكنها رات البيوت الصغيرة وعربات الترام الغريبة والشوارع الضيقة ، وكلها تشير الى بلدة صغيرة جدا ، لا الى تلك المدينة الكبيرة ذات الميناء العظيم التى كانت تتخيلها وحاولت ان لا تحكم على فرنسا الصغيرة المجهولة بمشاعرها الامريكية ، ولكن ذلك كان صعبا عليها . ودق جرس الوصول لحسن الحظ منادياً كل الركاب ، ونزل كل منهم وبيده جواز سفره للذهاب الى قاعة الجمرك لانهاء بعض الرسميات الخاصة بالتاشيرات وغيرها ، ووقف على الرصيف شخص مليء الجسم الى جانب شاب وجيه واخذ يراقب الركاب ، وسمع فجاة صوتا وراءه .

ــ السيد سميث على ما اعتقد ؟

ــ واستدار الرجل بسرعة ومعه الشاب الذى رفع قبعة فى ادب واحترام ، بينما كانت اديث تبتسم وتحاول اسكات قلبها الذى كان ينبض بشدة لفرط ما انتابه من سرور وعصبية وقلق .

ــ اهدأ ايها الكلب المجنون .

ــ الآنسة اديث سومفورد ؟

واجابت اديث بانحناءة خفيفة والتفتت الى الشاب الذى وقف مترددا وهو ينتظر ، ومدت اليه يدها فى دلال

لتصافحه ، ولكنه رفع اصابعها الرقيقة الى شفتيه وقبلها مدللا بذلك على حبه العميق .

ــ خطيبتى العزيزة ..

وسحبت يدها منه بسرعة ، فلا مجال لمثل هذه الرقة فى امريكا ، وقالت فى لطف :

ــ عزيزى الدوق .. انى سعيدة .. سعيدة جــدا بمعرفتك .

وتفحصته بعناية .. كان طويل القامة ، حسن المظهر ، انيق الثياب ، تماما كما تخيلته ، ولو انها كانت تفضله اكثر رجولة ، واقل رقة ، ولكنها لم تظهر شيئا من ذلك ، واكتفت بالسؤال :

ــ السفر الى باريس بالطائرة طبعا ، يا سيد سميث .

ــ نعم يا آنسة .

ــ حسنا ان باقى متاعى سيصل بالباخرة التالية .

كان هذا كل ما قالته ، وتركت للوكيل العناية بحقائبها وكلبها ، وحمل سميث الحقائب وهو متبرم ، ولكنــه تبعها . وانجز شئون الجمرك ، وسارع الى مكتب الجوازات وما ان انتهى منه حتى جرى ليلحق بالاثنين اللذين سبقاه ، وفتح باب السيارة التى تنتظرهما لتنقلهما الى المطار ، وبعد ان ركبا واقفل الباب خلفهما ، وقف امام النافذة المفتوحة وسأل :

ــ أمن خدمة اخرى يا آنسة ؟

ــ طبعا ! سانتظرك فى الفندق بباريس حال وصولى لتتلقى تعليماتى .

وادارت رأسها لتواصل حديثها مع الدوق ، وانطلقت السيارة بينما وقف سميث كالمصعوق .

ــ آه كلا .. ايعنى ذلك ان مهمتى لم تنته بعد ؟ .. هذا كثير .

وانطلق الوكيل وحيدا وهو يتذمر الى المحطة ..

وغادرت السيارة المدينة في هذه الاثناء ووصلت الى مطار سانت ادريس ، وكانت تشاهد اثناء الطريق المناظر غير المألوفة التى تمر بها ، والتفتت نحو رفيقها فجأة وسألته :

ــ هل انت راض الان عن زواجك بامريكية ؟

واستولت الحيرة على الدوق ، ونظر اليها وهو لا يفهم ما تقصده .

ــ بكل تاكيد يا آنسة ، وانا سعيد لانك تجمعين بين السحر والجمال والرقة .

ــ انك تتكلم الانجليزية .. اليس كذلك ؟

ــ كلا ، فانا لا افهم الانجليزية ، وما أهمية ذلك ، وانت تتكلمين الفرنسية ؟ اليست لغتنا جميلة ورقيقة فى نطقها والتحدث بها ؟

ــ كلا ، فانتم لاتراعون الدقة فى فرنسا ، فانت تقول مثلا «انا احبك» سواء اكان ذلك لخطيبتك او للحوم البقر المحمرة ، وتستخدم الفعل نفسه للاثنين ، واما نحن فنقول :

نحن نشتهى لحم البقر المحمر .. وانا احبك «يا دوق » .

ــ ان الكلمات لا تهم ، فان المشاعر هى كل شيء ..

ــ ربما يا دوق ، ولكن الكلمات هى التي تعبر عن المشاعر ، واعتقد ان عليك أن تتعلم الكثير ، فانت لاتهتم كثيرا بالفارق .. هناك مثلا الانسة سومفورد بشركة سومفورد والانسة اديث ، وهما تختلفان تماما فى اوضاعهما .

ووصلت السيارة وهى تنطلق فى طريقها الى شاطيء سانت ادريس ، وبدا الصليب الصخرى

لانظارهما وهو يلمع ، فاعجبت به اديث ايما اعجاب .

ــ ان فرنسا فى الواقع متحف كبير وكم أود أن يأتى كل امريكى الى هنا ويدفع مبلغا ضئيلا فى مقابل ان يتعلم انه كان لهذه البلاد ماض عظيم .

ــ نعم ، نحن .. انتى واحد من ممثلى هذا الماضى .

ــ نعم ، يا دوق .. انك تمثل الماضى ، اما أنا فانى امثل الحاضر ، وامريكا هى المستقبل .. وعلى هذا فقد اتفقنا .

ودارت السيارة ودخلت المطار ، وكانت هناك طائرة رابضة على الارض ويعمل بعض الميكانيكيين تحتها ، ونزلت اديث من السيارة واتجهت نحو الطيار .

ــ أهذه هى الطائرة التى تنتظرنى ؟ . انا الانسة سومفورد .

حسنا يا آنسة ، اننا على استعداد للطيران متى اردت .

وصعد الى الطائرة واختفى فى قمرة الطيار ، بينما سحب احد الموظفين السلم المتحرك للصعود الى داخل الطائرة . وارتقت اديث السلم على مهل واتخذت مقعدها ، بينما تبعها الدوق فى تؤدة وهدوء .

وخامر الدوق شعور بالقلق بعد أن استقر فى مكانه وتساءل :

ــ أتبدأ رحلتنا الان ؟

ــ طبعا ، بالتاكيد .. اتحب الطيران ؟

ــ هذه هى اول مرة أطير فيها .

ــ ماذا .. احقا تقول ؟ ان لوالدى طائرتين فى شيكاغو لتنقلاته الهامة ولست ادرى تماما ولكننى اعتقد انى طرت قرابة مائة وخمسين ساعة ، وارى الان ان قدومى الى فرنسا كان واجبا حتى استطيع ان اعلمك

معنى التقدم والتحضر .

وبينما هما فى هذا الحديث رفع احد الميكانيكيين يده وعندها صاح الطيار ببضع كلمات غير مفهومة ، فتعلق اثنان بمروحة الطائرة وأداراها وملأ هدير المحركات وانطلقت الطائرة وهى تتمايل يمينا وشمالا ثم ارتفعت فى الجو وهى مائلة بجناحها الايسر نحو الارض ، واجاب الدوق أخيرا على حديث اديث بصوت مختنق .

ــ أنا .. أنا لا احب هذا على الاطلاق .

وصادفت الطائرة مطبا فى الهواء ، وارتجف الكلب وصدرت منه همهمة مكبوتة ، وشعر الدوق وكانه يهبط فى مصعد متجر كبير بسرعة هائلة ، وتمسك رغما عنه بمقعده ، اما اديث فقد هبت واقفة من مقعدها وأخذت تتحرك داخل الطائرة فى هدوء وتداعبه لتزيل من رعبه وتحرجه ، وهمهم الدوق فى صوت مبحوح :

ــ كفى عن الحركة بالله عليك ، فماذا لو اختل توازن الطائرة وفقد الطيار السيطرة عليها ؟

ــ لا تخف يادوق .. ليس هناك أى خطر ، قف وأمسك بيدى .

ومدت يدها اليه وهى مستندة الى جدار الكابينة ، وحاول المسكين الوقوف وهو يتحسس يدها ، وأظافرها اللامعة ، ولكنه ارتمى ثانية على مقعده وهو يتمتم :

ــ ما الذى قلته .. انك تجازفين كثيرا ويعوزك الحذر .

ــ لا ، لا .. اذا فقدت امريكية ، حلت عشر محلها ، ولكن ماذا لو أن دوقا واحدا فقد ؟

ــ وانطلقت ضحكة مرحة رنانة ، وعادت الى مقعدها وهى تتراقص . ووصلت الطائرة الى مدينة « روان » وطارت فوقها على ارتفاع منخفض ورأت اديث الناس

وهم يرفعون رؤوسهم لمشاهدتها ، وغيرت الحديث وسألت :

على فكرة .. حدثنى عن قصر آبائك القديم .. أهو ضخم كبير ؟

ــ كبير جدا .. ان مساحته ثمانون هكتارا كلها حدائق وغابات وبه مائة وعشر حجرات خصصت ثلاثون منها للضيوف .. ولكن لم تسألين ؟

أتعتقد انه يمكن نقله الى أمريكا اذا لزم الامر ؟

ــ لم افكر فى ذلك .. واذا كان هذا يهمك حقا .. فانه سيكلف الكثير .

ــ هاها .. ان غيرة ابدا برنابوث تساوى بالتأكيد بضعة دولارات

وتجلت فى عينى الدوق لمحة من الاعجاب ، وابتسمت اديث :

ــ نعم ، نعم .. انى غنية جدا .

ــ ان لذلك ميزة كبرى .

ــ نعم ، ولكنه فى الوقت نفسه يضايق . اعلم يادوق أن الثراء فى أمريكا هم ووسيلة ، وأما فى فرنسا فهو هدف ، على العموم أرجو يادوق أن تعطينى الاتفاق ، أتفعل ذلك ؟

وابتسم الاخير فى خبث .

ــ بالتأكيد .. اذا حلا لك ذلك

وصمت الاثنان بعض الوقت غارقين فى احلامهما ، وتساءلت الاندة أديث فجأة عما اذا كانت لا تخدع نفسها ، وعرتها فى لحظة خاطفة رغبة جامحة فى أن تصيح بالطيار : عدينا ، وعلى الفرم ولكنها لم تجرؤ على ذلك ، فالفتاة الامريكية اذا لعبت ، فانها تلعب لعبتها فى حرية وصراحة وتتحمل كل النتائج .

وصاح الدوق فجأة .

ـ اننا نسقط ..

وهزت اديث كتفيها باستخفاف بينما أشار الطيار الى نقطة وقال :

ـ لى بورجيه ....

وأخذت الطائرة فى الهبوط ببطء ، وهى تدور فوق المطار ثم لمست الارض وانزلقت عليها وهى تقفز وتهتز ثم توقفت وفتح بابها المغلق

ـ الانسة سومرفورد ..

ـ هى أنا ....

ـ حسنا ، انا الموظف الذى يعمل لدى السيد سميث ، ان معى سيارة هنا .

وأسرع الرجل لمساعدة الفتاة على النزول ، وخطر له لن اليد التى لمسها تساوى الملايين من الدولارات ، فمراه مزيج من الزهو والفخار

ـ هل استمتعت الانسة برحلة طيبة ؟

ـ كانت حقا عجيبة وممتعة .

وصعدت الى أقرب سيارة ، وكانت هناك سيارة أخرى فى انتظار الدوق لتوصيله الى منزله

ـ سأراك قريبا ، وأعتقد أنه تم الحجز فى « فندق ارك » بميدان الكونكورد .

ـ اى خطيبتى العزيزة ...

وأخذت تلوح بيدها من السيارة التى انطلقت بها ثم التفتت الى كلبها تداعبه :

ـ ايه .. أيها الكلب الصغير .. فيم تفكر ؟ ... انه لم يأبه بالتحدث عنك معى !

وأخذت تتلفت يمينا ويسارا طوال الطريق وهى تتعجب . المحال التجارية الصغيرة والمنازل الواطئة

القذرة والاطفال الاصحاء الاقوياء فى ثيابهم المهلهلة ، وكل هذا لا يتناسق أو يتفق مع ما غادرته فى بلادها فلم تكف لحظة عن الابتسام . وكانت تدلى بمشاعرها هذه الى كلبها المدلل « كينج تشارلز » .

انظر ياكلبى .. هذه هى فرنسا الصغيرة .. ما أكثر القديم وما أقل الجديد فيها ! ..

هذا شىء عادى هنا ، وهو لايشير أحدا كما هى الحال فى أمريكا .

الفصل الثالث

توقفت السيارة أمام الفندق بعد دقائق قليلة ، وهرع الموظفون والخدم الى الاحتفاء بالضيفة الشابة واصطحبها المدير الى جناحها الخاص بالطابق الاول ، وقد فاحت رائحة المليارات حولها ، وكانت اديث تبتسم للجميع وتتمتم : شكرا .. شكرا .. شكرا .

ودارت الهمسات حولها ، هذه هى ابنة الملياردير سومفورد ، ملك المعلبات واللحوم المحفوظة .

ـ يالطفلة المسكينة !

ودخلت الفتاة حجرتها التى تطل على ميدان الكونكورد ، وفتحت النافذة واطلت منها، فرأت باريس تترامى امامها وكأنها ترحب بها ، وقد فاحت منها رائحة عطرة نافذة ، وكانت المسلة منتصبة وسط الميدان شامخة عالية وكأنها تهدد السماء ، والمياه تنساب من النافورات فى خرير هادىء ، ومبنى مجلس النواب فى مواجهتها يذكرها بقصر « مجدالا » ، ونظرت الى الميدان الفسيح وشارع الشانز ليليزيه تحفه الاشجار ويموج بالناس وكأنه حديقة وسط المدينة ، وفتحت ذراعيها وصاحت : اى فرنسا .. ياوطنى العزيز ! ...

وتلألأت قطرات الدموع على اهدابها ، واستولت عليها رهبة طاغية .

ـ رباه ! كن رحيما بطفلتك الصغيرة .

تضاءلت قوة الانسة اديث المادية وذابت امام عظمة

المدينة وتاريخها القديم الذى يرجع الى قرون ، واحست الدوقة المستقبلة فجأة بالوحدة وسط ثرائها ؛ ولكنها عضت على شفتيها واستعادت نعرتها الامريكية وتغلبت على مشاعر الوهن والقلق :

ـ ان كل شيء على ما يرام .. ادخلوا اولا حائكة الثياب وصانعة القبعات فى الصالون ، وعلى الباقين أن يأتوا بعد ظهر اليوم .

ولم تمض خمس دقائق حتى كانت فى حوار ونقاش مع الحائكة ، وفى منتصف الساعة الحادية عشرة كانت قد أوصت على صنع سبعة أثواب وثلاثة معاطف وست قبعات وبضعة أزواج من الاحذية ، وجلست امامها فتاة تقلم لها أظافرها وتجملها . وهبت واقفة على حين فجأة :

ـ ياالهى .. لقد نسيت والدى العزيز .

ودقت الجرس .

ـ أرجو ارسال البرقية التالية : « سومفورد . شيكاغو . وصلت بسلام ، الدوق مثالى ولطيف جدا ، فرنسى بمعنى الكلمة . أنا سعيدة جدا ، واقبلك »

وما ان انتهت من تجربة ثوب ثالث للشاى حتى دق احدهم على الباب ، وبعد اذنها دخل سيدنى وسميث وهو يترنح من التعب وقد كسا الغبار وجهه :

ـ أنا فى خدمتك ...

ـ حسنا ، ولكن ما الذى صنعته بنفسك ؟

ـ لم يكن هناك قطار ، فاستأجرت سيارة سباق ...

وتنهد قائلا : ـ ان العناية بك والمحافظة عليك اصعب جدا من بيع المعلبات .

وانفجرت الفتاة ضاحكة :

ـ ربما كان هذا صحيحا ، ولكنه لا يهم ، وعلى العموم مر باعداد طعام الغداء ، وحاول بعد ظهر اليوم

ان تشترى قصرا صغيرا فى الضواحى للبدء فورا فى اعداده وتأثيثه .

والتفتت الى الحائكة وأدلت اليها ببعض التعليمات ، ثم استدارت ثانية الى الوكيل الذى كان يهمهم بكلمات غير مفهومة :

ــ ماذا تقول ؟

ــ أقول ان الدوق مدين بمبالغ طائلة ، وهناك مستندات الرهن على أملاكه التى سددت قيمتها وتم شراؤها على الفور .

ونظرت اليه اديث متعجبة :

ــ أهو كذلك ؟ ماعنى مستندات الرهن هذه ؟ ان هذا من شأن الدوق ، وسأفوض له الامر

ــ ولكن .. هذا من شأنك أنت وحدك ، لقد اشتريتها كلها وسددت قيمة الرهن ، كما اشتريت جميع مهمات الصيد ومجموعة من الكلاب الخاصة به .

ــ هذا جميل .. الصيد فى الثياب الحمراء .. انه يذكرنى بالنقوش الانجليزية التى كنت اراها وأنا مع مربيتى وأنا صغيرة فى غرفة دراستى

ــ وقد أسرف والد الدوق الى جانب ذلك واستدان وأنفق مبالغ طائلة وهو يعيش عيشة البذخ والترف .

وتململت اديث ، وقالت فى صوت جلى قاطع :

ــ اسمع ياعزيزى السيد سميث .. ان ذلك لا يهمنى اطلاقا .. ان سومفورد، العجوز العزيزة قد ارسل لك مبلغا كبيرا .. فلا اهمية للمسألة .. ادفع ، وانه الامر .

وترك الوكيل ذراعيه يسقطان الى جانبيه ، وآثر ان لا يفضى بتصريحات أخرى الى الفتاة .

ــ سمعا وطاعة يا آنسة سومفورد .. وخرج .

وسمع طرق على الباب ، ودخل الدوق بعد لحظات

وهو يرتدى سترة جميلة وبيده قبعة عالية ، ويبدو فى منتهى الاناقة وفتحت اديث باب غرفة الاستحمام قليلا حيث كانت ترتدى ثيابها بعد التجارب العديدة لاثوابها الجديدة . وبدرت منها صيحة فرح

ــ آه .. كيف حالك يادوق .. ! انتظرنى لحظة واحدة .. لا لحظة امرأة كما تعرفونها ، بل لحظة امرأة أمريكية .. فالوقت عندنا من ذهب ..

وواصلت الضحك ، وكانت نبرات صوتها تملأ جو الغرفة المشمسة ، وأقبل فى الوقت نفسه أحد الخدم واعلن أن غداء الانسة قد أعد .

وظهرت اديث فى ثوب فاتح أنيق ، وقدم لها الدوق ذراعه واقتادها الى الغرفة التى أعدت فيها المائدة ، وسكب الخادم قليلا من الشمبانيا فى كأسين ، ورفعت اديث كأسها .

ــ نخب قرننا الصغيرة يا دوق ، وسعادتنا .

ورفع الدوق كأسه بدوره :

ــ نخب هنرى د . سومفورد الذى ادين له بسعادتى فى حبك .

ــ نعم ، لنشرب نخب الوالد العجوز العزيز .. انى اعمل ذلك من كل قلبى .

وقرعا كأسيهما وشرباهما ، وبدآ يأكلان ولكن اديث توقفت فجأة ويدها مرفوعة فى الهواء وممسكة بالشوكة :

ــ آه ، انى أفكر فى طول ذيل ثوب الزفاف .

وبدت الحيرة على وجه الدوق عند سماعه ذلك وبانت على وجهه سيمة الجد ، وانحنى الى الامام هامسا :

ــ عزيزتى اديث ، أرى لزاما على أن أخبرك انى لازلت فى فترة حداد ، ويجب أن يتم زفافنا فى أضيق دائرة محدودة ، وليس فى استطاعتنا دعوة احد لحضور حفلة

العرس سوى الشاهدين اللذين ينص عليهما القانون ٠
وبدت على وجه الفتاة علامة الاستياء :
ــ آه ٠٠ هذا شيء يؤسف له ، ولكن ٠٠ بالهذه الوالدة المسكينة ، يجب في الواقع أن لاتدعو أحدا ٠٠ لكم كنت سأحبها ٠
ــ اني واثق من ذلك ، كانت والدتي الدوقة سيدة عظيمة ذات افكار عالية ومبادىء سامية ولكنها كانت شديدة التمسك بالتقاليد ، ولست أدرى لو انها كانت باقية على قيد الحياة ، ما اذا كانت ستوافق رغم سحرك وجمالك على زواجنا، وهو مانسميه في فرنسا بالزواج المختلط ٠
ــ ماذا ؟ ٠٠ زواج مختلط ؟
وضم الدوق يديه ، كما لو كان يلقي درسا حفظه عن ظهر قلب :
ــ يا فتاتي العزيزة ٠٠ اننا نحن النبلاء وأصحاب الالقاب تعودنا أن نتزوج فيما بيننا، نعم ، أفاهمة أنت ٠٠ اننا ننحدر من سلالة قديمة جدا لا يسمح لنا بالتغاضي عن منزلتنا وتنشئ أصالتنا أمام أعين العالم ، ولولا لطفك ورقة مشاعرك ، لما كنت أوافق على هذا الزواج المختلط مراعيا في ذلك مركز أسرتي وأسلافي كان جدى حائزا للقب ، فارس سان جاك دا لكنتارا ، ويحق له دخول الكنيسة ممتطيا جواده ٠
ــ ماذا تقول ؟ ٠٠ يدخل الكنيسة ممتطيا جواده ! ٠٠ قد يتاح لك عمل ذلك في شيكاغو
ــ باللأسف ! ان ظروفا مؤلمة اضطرتني الى التخلى عن هذه الامتيازات عندما توفى والدى ٠٠ ولكنني سأستعيد هذه الامتيازات التي هي من حق أسرتنا ٠٠ ان دوقة دى بوربون دامبكور يجب أن تمشي جنبا الى جنب

مع أعظم عظماء المملكة الفرنسية ٠
ــ مملكة ؟ ٠٠٠ ظننت أن فرنسا جمهورية ٠
ــ سحقا لهؤلاء المغتصبين ٠٠ سيحل ذلك اليوم قريبا الذى تهز فيه عربات الملك من جديد جدران الثورة المنهارة ٠
وتركت اديث التي استولت عليها الدهشة طعامها يبرد أمامها ، ثم افاقت من ذهولها وتحولت الى الواقع والناحية العملية وسألت :
ــ ما رأيك ؟ ٠٠ ألا يمكننا على الاقل اعداد وليمة في الفندق عقب حفل الزفاف ؟ لقد كلفت سميث بأن يشترى لنا ٠٠٠
ــ لقد أصدرت تعليماتي في هذا الصدد الى وكيلكم ٠٠ كان والدى يقيم في قصر ، ماسا ، عندما كنا نقطن في باريس ، ويحسن أن يعاد هذا القصر الى أملاك الاسرة ٠
وذهلت اديث من كل هذه العظمة وغرقت في أحلامها ٠٠ ان لقب ، دوقة ، ليس بالشيء السهل المنال ، وقد بدا لها الدوق بعد هذا الحديث عظيما في نبلة وحداده وديونه ٠
وعاد الاثنان الى صالونها الصغير لتناول القهوة ، فوجدا الوكيل الذى تناول طعامه في الفندق قد حضر ليستأذن في الانصراف ، وكانت هناك كومة من رسائل التهاني والدعوات والالتماسات في انتظار الفتاة التي كانت تبتسم وهي في أوج سعادتها ٠٠ لم تكن المسكينة لتستطيع أن تتنبأ بما يخفيه لها القدر من مفاجأة غريبة بعد أيام قليلة !
ــ انظر ياعزيزى ، هذه دعوة لحفلة راقصة في النادى الامريكي ٠

ـ ولكن حذائى ..

ـ اسمع يا عزيزى ، سيكون هناك وزير ، ولن نفعل أكثر من المرور هناك ، وستأتى أنت الآن معى لاختيار الثوب ...

ودخلت اديث مخدعها لتأتى بمعطف ، وبقى الوكيل والدوق وحدهما ، واقترب الدوق بعد تردد قصير من الوكيل وسأله فى صوت متغير بعض الشئ :

ـ هل سويت ياعزيزى هذه المسائل التافهة التى ...

ونظر اليه سميث وهو يلعن كبرياءه فى نفسه .

ـ نعم ياسيدى الدوق .. دفعت أمس مليونا وستمائة الف فرنك الى المدعو كريبان لسداد ديون متنوعة وايصال الدفع موجود فى حافظتى .

ـ ماذا تريد يا عزيزى ... انه جنون الشباب وخاصة من جانب والدى .

ـ أفهم ذلك .. ان والدك هو الذى ارتكب الاعمال الجنونية ؛ والآنسة سومفورد هى التى تضحى ..

ـ نعم ... هذا صحيح من الناحية المعنوية وتبقى بعد ذلك بعض الديون التافهة لحائك الثياب والقمصان والقبعات وأريد سدادها ... انها لا تتجاوز ٦٠٫٠٠٠ فرنك ، أرجو أن تتلطف وتقدمها الى .

وأمسك بذراع سميث فى تزلف وتودد ، وقدم له علبة سجائر ولكن سميث هز رأسه .

ـ انى لا أدخن .. ويمكنك ياسيدى تقديم ايصالات الديون فى مكتبى فهذا أسهل من جهة الحساب ، وستسر الآنسة سومفورد جدا بتقديم ايصالات السداد لهذه الديون التافهة .

وعادت اديث الى الصالون وقد لبست ثوبا أزرق اللون أنيقا بتمشى وبشرتها النضرة وخرجت

مستندة الى ذراع خطيبها وتاها وسط جموع الناس التى تموج بها شوارع باريس وهما يتنقلان بين أرقى بيوت الأزياء ويشاهدان أحدث المبتكرات ، ولم تنطق اديث طوال الوقت حتى المساء الا بهذه الكلمات :

ـ جميل ... رائع ... أيعجبك هذا يادوق ؟ سأشتريه .. أرسلوا الفاتورة الى سميث : مبنى ، سان اوجستان » .

ورغم كل هذه الحركة والتنقل لم يبد عليها أى أثر للتعب عندما دخلت النادى الامريكى وهى مرتدية ثوبا أبيض فى منتهى البساطة ومستندة الى ذراع خطيبها الذى ارتدى حلة فى غاية الاناقة يحتمل جدا أن يكون الأب العجوز سومفورد قد تولى تسوية حسابها ، وبينما كان القائم بالاعمال الامريكى يقدم التهانى لواضعته عن سلامة الوصول والخطوبة السعيدة ، التف عدد من الزوار حول الدوق ، وأخذوا يوجهون اليه نفس السؤال تقريبا :

ـ هل أنت ابن الدوق آديمار دى بوربون ؟ ... لقد مات عقب الحرب مباشرة ، أليس كذلك ؟

ـ كم سألنا كثيرا عما حل بطفلة الجميين .. كان عمرك ستة عشر عاما عندما فارقنا .. أليس كذلك ؟

وأجاب باقتضاب :

ـ حداد اليم .. وعمل كثير ... الاشراف على الاراضى ... وفاة أبى ... وكان على الاهتمام بانهاء دراستى ... وقد انتقلت الى أملاكى فى « لاند » ... منذ عشر سنوات ولم أبرحها أبدا خلال هذا الوقت ... كانت والدتى مريضة جدا ويستحيل ان اتخلى عنها ... وقد توفيت منذ بضعة شهور وتركت فراغا كبيرا فى حياتى ... هذه أول مرة أخرج فيها ارضاء لخطيبتى

... وانا سعيد جدا .

واقترب منه رجل مسن فى ثياب السهرة .

— اى شارل العزيز ... كنت أعرف والدك جيدا ، وكثيرا ماالهونا سويا ! ... اه يالهذا العجوز آديمار ... تيريز ... الامير سيترون ... الفار الميت .. مكسيم .. يالها من ذكريات ، ولكنها لن تعيد الى شبابى ... عرفتك وانت طفل ... ان فيك شبها من والدك بالجزء الاسفل من الوجه ... الذقن ... ذقن البوربون .

وهز رأسه ومال نحو الفوق :

— اى عزيزى شارل ... الا قل لى فيما بيننا هل لخطيبتك شقيقة ؟ ... لا أفكر فى ابنى واذا عنت لك فكرة .... هذا هو الواجب بين الاسر القديمة .... يالهى ، انه ان احبها فاننا سنوافق فى النهاية رغم كل شىء على هذا الزواج المختلط .

● ● ●

الفصل الرابع

تبعد قرية لوركان بضعة كيلومترات عن « سان — سيفير » وهى تتألف من كنيسة صغيرة تتناثر حولها بضعة بيوت صغيرة ، وساعى البريد الذى يعمل فى هذه القرية رجل أمين بطىء فى عمله ، مثله فى ذلك مثل زملائه ، وهو يعلم تماما عندما يمتطى دراجته فى الصباح الباكر أنّ عليه أن يقوم بجولة طويلة كالعادة ، وهو لا يتعجل الامور فان ذلك لن يجدى شيئا فالدنيا حوله هادئة ، والناس والماشية والحيوانات يخلدون الى السكينة فى هذا الوقت المبكر .

وبعد أيام قليلة من وصول أديث الى باريس كان ساعى البريد يقطع الطريق الهادىء على دراجته وهو غير آبه بشىء ، ومن وقت لآخر يحيى احد مواطنيه ملقيا السؤال التقليدى على كل من يقابله :

ـ هل من جديد ؟

ولم تكن معرفة الاخبار تكلف السكان شيئا يذكر ، اذ كانوا يقنعون بمعرفة ما اذا كانت الحكومة قد سقطت او وقع حادث خطير جديد ، لهذا هو كل ما يتلهفون على معرفته .

وكان ساعى البريد فى هذا اليوم على غير عادته يردد الكلمات المبهمة :

ـ آها .. ! يتزوج .. !

وكان الفلاح يسمع هذه العبارة فيفهم منها أن هناك

زواجا سيعقد ويقول لنفسه : « رباه .. ان هذا لن يؤدى الا الى زيادة بائس فى ريفنا » .. ووصل ساعى البريد الى لوركان التى خيم عليها الهدوء ، اذ غادرها الفلاحون للعمل فى الحقول او فى جهة اخرى .

والنساء يشتغلن بغسل الثياب ، بينما الكلاب ترقد على الدرجات الحجرية ، والدجاج يمرح فى الطريق .

وقفز ساعى البريد من على دراجته بجانب سور حجرى ، وجذب سلسلة فسمع صوت جرس يرن فى الداخل ، وظهرت عجوز ضئيلة الجسم ملتحفة بثوب رمادى داكن اللون ، وهبطت درجات السلم الثلاث واقبلت نحو السور وفتحت الباب .

ـ عم صباحا يا صاحبى .. ما عندك من الاخبار ؟ .. أهى سارة ؟

وفتح ساعى البريد حقيبته وناولها جريدة وبعض النشرات وهو يغمز بعينه ، وتسلمتها العجوز واغلقت الباب ، ودخلت البيت ، وعبرت القاعة بسرعة الى الجانب الخلفى حيث تقوم حديقة صغيرة جميلة احسن تنسيقها لتليق بقس القرية ، ونادت :

ـ سيدى القس .. سيدى

وصدر صوت من وراء اشجار الكمثرى :

ـ ماذا تريدين يا مارى ليس ؟

وتقدمت العجوز نحو مصدر الصوت حيث وجدت قس لوركان وقد رفع ثوبه حتى ركبتيه وامسك بفأس يحفر بها الارض لزراعة البطاطس ، واخذ يمسح العرق الذى تصبب على جبهته بظهر يده :

ـ ماذا دهاك يا مارى ليس ؟ .. أمثل هذه الضجة من أجل جريدة ؟ .. ترى هل انتابك المرض ؟

وقلب النشرات بين يديه ثم قال :

ـ ضعى هذه كلها على مكتبى .. واما الجريدة فسأحتفظ بها .

ومزق الشريط الملصق حولها بعد أن جفف يديه وبدأ فى الاطلاع على الاخبار ، ثم اخذ يهز رأسه وبدت على وجهه علامات الضيق والامتعاض وقلب الصفحة واخذ يقرأ انباء المجتمع ..

ـ يا الهى .. ! مارى .. مارى .. ليس ..

واستدارت العجوز منزعجة وهى واقفة على عتبة باب البيت .

ـ ماذا حدث .. هل وقعت يا سيدى ؟

ـ كلا .. تعالى واسرعى ..

وجرت العجوز بقدر ما سمحت به لها ساقاها الضعيفتان .

« اقرئى .. كلا .. الافضل أن تسمعى : « لنا الشرف بان نعلن عن خطوبة الدوق شارل دى بوربون دامبكور بن المرحوم آديمار دى بوربون دامبكور وجان دى جرابيز شامبور الى الانسة اديث سو مفورد كريمة السيد هنرى د . سومفورد من شيكاغو والمرحومة السيدة مارجريت سو الوز وقد احتفل اليوم باتمام المراسيم الدينية فى اضيق الحدود » .. ما رأيك فى ذلك ؟ وتبادل القس والعجوز النظرات وقد استولى عليها الذهول ..

ـ شارل .. لقد قرأت الاسم تماما .. عزيزنا شارلو .. هل تذكرين لقد علمته القراءة وهو طفل .. كان الطريق طويلا وكنت اخلع نعلى عند وصولى الى القصر فكان يخبئها فى المدفأة ..

ـ وكنت عندما اعطيه المربى يلوث بها رباط عنقه الجميل !

ونظر القس الى الجريدة وعاد الى قراءتها فى بطء :

« آه .. ان هذا يسرني على كل حال .. وها هو قد تخلى عنه النحس »

لو ان السيدة الدوقة كانت لاتزال على قيد الحياة لسرت كثيرا كانت سيدة بسيطة حلوة الشمائل ما اطيبها ـ لقد قلت لعزيزنا شارل منذ شهر واحد: « يجب عليك أن تتزوج » فسخر مني وقال « أتزوج .. وعمرى ٢٨ سنة .. ولا أملك نقيرا .. انك لاتفكرفى ذلك ، يا استاذى العزيز .. انت تعلم جيدا انى خسرت بعد وفاة والدى كل ما تبقى لى فى السندات الروسية ، واملاك أميكور مرهونة عن آخرها .. وليس فى امكانى عمل اى شىء .. سأموت وحيدا بلا زواج ..

ـ أيها الصغير المسكين !

ـ نعم .. انه رغم ذلك لم يقل لى شيئا عندما زرته فى الشهر الماضى ، وكان ذلك كما تعلمين عندما ذهبت الى ميجرون .. واخيرا تزوج امريكية .. شيكاغو .. انها على ما اذكر فى أمريكا .. لم يكن من اللباقة ان يخفى ذلك عنى .. كم كان يسعدنى ان أبارك زواجهما .. ولكننى طبعا قسيس مسكين .. ورغم ذلك كان يمكن اذا لزم الامر اتمام ذلك فى ركن صغير من الكنيسة . حقا ، لم اكن اتوقع منه مثل هذا التصرف .. وكم كان والده الدوق يسر بزواجه .. كان رجلا عظيما يعرف كيف ينفق المال ، ولايعرف كيف يكسبه ، وكانت حياته سباقا وصيدا ورحلات ، وكان هو وكونت شامبور ودوق اورليان ملكيين .. واذكر انه قال لى عام ١٩ عندما عدت من الجبهة : « لقد افلست تقريبا ، يا عزيزى المسكين .. ولكن سيبقى لك مكان على المائدة دائما .. رجل طيب بمعنى الكلمة ، ولكن به شىء من الطيش والتهور ككل آل أميكور . رباه ! انه المال .. سبب كل شقاء ! وقال

الاب دونا ، قس لوركان فجاة :

ـ ماذا لو ذهبت الى هناك ؟ .. ناولينى ثوبى الكنسى وقبعتى وحذائى الجديد بسرعة .. اريد أن افاجئه ..

وامسكت مارى ليس بذراعه واوقفته :

ـ ولكن فكر يا سيدى القس ، انه لن تجده هناك ، فان الجريدة من باريس وهو بالتاكيد موجود هناك ، اضف الى ذلك ان زواجه يتم اليوم ، ثم انك لا تستطيع الذهاب فى مثل هذا الجو الحار ، وبدون أن تتناول طعامك ، يمكنك الذهاب غدا او فيما بعد . دعهما يعودا اولا ويستمتعان بحبهما وشبابهما .. فما شان عجوز مثلك بالتدخل فى دنيا غرامهما ؟

وفكر القس لحظة .

« الحق معك .. شارلو ، ياله من شرير .. لو اننى أمسكت به .. ايتركنى وانا اعز صديق له لاطلع على هذا الخبر من الجرائد ! ومع كل .. دعينا نهنىء انفسنا اولا ونشكر الله على ما صنعه لمن نحبهم .. ولكن ألم يكن من واجب انهذا الصغير عليه لنيخطرنى بانه سيتزوج من امريكية ؟

ودار حول نفسه وصاح فرحا :

« اسمعى يامارى ليس ، هذا يسعدنى كما لوكنت انا نفسى الذى تزوج .. يا الهى ما هذا الذى تجعلينى اتفوه به » !

ـ لا شىء يا سيدى القس ، انا الاخرى سعيدة جدا ، ولا شك ان العجوز بييرو وماليجريت اللذان يحرسان القصر فى منتهى السعادة والفخار ، وانى لاتذكر انه عندما مرضت سيدتى الدوقة بسبب الحرمان والحزن لوفاة السيد الدوق كانت تقول دائما « تزوج يا شارلو .. يا ولدى العزيز ، حتى تدخل الفرحة الى قلبى

بمعانقة احفادى وتقبيلهم قبل وفاتى ».

واشار الاب دونا الى باب الكنيسة المؤدى الى الحديقة :

« تعالى .. دعينا نصلى وندعو القديس الكبير فينسان دى بول ، قديس اقليمنا ، أن يحفظ عزيزنا شارلو ويمنحه السعادة التى يستحقها » ..

وركع الى جانب تمثال القديس وبجانبه مارى ليس وبدأ فى الصلاة بصوت خافت كانت نبراته ترتفع شيئا فشيئا فى جوف الكنيسة ، واختتم الصلاة بقوله :

« امين ، أيها القديس فينسان ، احفظ لنا صغيرنا »

ووقف وتأبط ذراع مارى ليس :

« تعالى واعدى لى طعام العشاء .. ما الذى اعددته لى هذا المساء ؟

ـــ عشاء طيبا ومسنفا تحبه .

ـ شىء جميل ..

» واسرع نحو غرفة المائدة فى خطوات ثابتة ، وكان كل شىء فى الغرفة بسيطا ، الجدران طليت بالجير ، وتتوسطها مائدة وكرسى من القش الى جانب صوان من خشب الموسكى وبدأ الاب دونا فى التهام طعامه وهو يحدث نفسه :

ـ هذا العزيز شارلو .. ولكن ، ما علينا ..

●●●

وبدت الشمس وكانها تألقت مع الانسة اديث ، فلم تغب لحظة واحدة منذ وصولها الى فرنسا ، ولم تجردها مع الهالة الساطعة التى زادت من فتنتها وبهجتها .

كان الجو صحوا ومشمسا فى هذا اليوم ، وعندما دقت الساعة الحادية عشرة ، خرجت الانسة اديث وقد

اصبحت لتوها دوقة بوربون دامبكور مستندة على ذراع زوجها من كنيسة « سانت اوغوريه نيلو » ، وتم الاحتفال الدينى فى منتهى البساطة ، وشهد كل من القائم بالاعمال الامريكى والوكيل سيدنى وسميث بان الانسة اديث سومفورد اصبحت شرعا وقانونا زوجة شارل ، دوق بوربون دامبكور الثالث عشر ، الذى دعا صديقه السيد كريبان ، مسجل العقود ، ليشهد هذا الاحتفال المثير بدلا من اقاربه الذين كان من المفروض حضورهم للاشتراك فيه .

وبينما كانت اديث تتأمل الخاتم الذهبى فى اصبع يدها اليسرى الذى يرمز بالنسبة اليها الى المستقبل بأسره ، كان الدوق الذى لم يهتم بهمس المعجبين يتقدم على البساط الاحمر الذى مد حتى الافريز ، واشار الى احد الخدم بفتح باب السيارة الفاخرة التى كانت فى الانتظار ، وساعد زوجته فى رفق وعناية على الصعود اليها واتخاذ مجلسها فيها ، ثم استدار الى صديقه مسجل العقود وقال له :

ـ عزيزى السيد كريبان ، ارجوك التوجه الى قصرنا حيث نجتمع لتناول الغداء ، فلدى بعض التعليمات اريد أن افضى بها اليك قبل رحيلنا لقضاء شهر العسل .

ووقف هذا الصديق الاصلع العجوز وقد رفع قبعته وشبك يديه على صدره ، وانحنى فى احترام وقال :

ـ سمعا وطاعة .. انا طوع امرك يا سيدى الدوق .

وانطلقت السيارة تحمل الزوجين . وتقدمت بعدها سيارة اخرى ركبها القائم بالاعمال الامريكى والوكيل سيدنى و . سميث

وبقى السيد كريبان وحيدا ، فخلع قفازيه وتأملهما فى ارتياح

ـ انهما لم يتسخا ، وهذا من مميزات حفلات زواج العظماء التي يقتصر فيها على دعوة الخلصاء

واندفع فى الطريق فى خطى خفيفة سريعة وغمغم قائلا :

ـ افضل السير على الاقدام ٠٠ ان فى ذلك وفرا ومنفعة لى ٠٠ فسيارات الاجرة غالية وتكلف الكثير ٠٠

وبينما هو يسير واسفلت الطريق الساخن يلهب قدميه ، سمع صوتا حادا يسأله :

ـ خبرنى يا سيد كريبان ٠٠ هل تسير الامور على ما يرام ؟

ـ تسير يا ابنتى وكأنها تنزلق على عجلات ٠٠ انك كنت على حق عندما فكرت فى انه يمكن جمع ثروة من وراء هذا الشاب ٠٠ انه فى الحقيقة جدير بأسلافه ٠٠

وبدرت من السيد كريبان ضحكة قصيرة وهو يمد يده الرخوة الهزيلة الى الانسة جوزيان التى خرجت لتوها من ركن احد الابواب عندما مر كريبان امامها ٠

ـ تعالى معى يا انسة جوزيان ٠٠ واذا لم تكونى مدعوة ، فانا ادعوك ٠٠ ويبدو انهم اعدوا لنا وليمة للاحتفال بالزفاف ٠٠

وتبادلا نظرة طويلة واتجها نحو شارع مالاكوف فى خطى خفيفة سريعة ، ووقف خادم فى لباسه الرسمى امام باب القصر الذى تم شراؤه وتأثيثه منذ ايام قليلة ، وتقدم السيد كريبان منه وقال فى كبر وغطرسة :

ـ لقد وجه الدوق الدعوة الينا ؟ انا مسجل العقود ، وهذه السيدة هى احدى وصيفات الدوقة ٠

وكان الرواق مزدانا بالزهور البيضاء والنباتات الخضراء ، وصفت هدايا الزواج على مائدة كبيرة ويقوم على حراستها شخصان وبينما كان السيد كريبان يتأمل

الهدايا ويعجب بها ، صاح احد الحارسين :

ـ عجبا ! ٠٠ انت هنا ٠

وارتجف العجوز وتلعثم ٠

ـ نعم ٠٠ لا ٠٠ انا ٠٠ انا صديق للزوج ٠

وضحك الحارس عاليا :

ـ دعك من هذه السخافات ٠٠ يا لها من مهزلة ! ومع كل فان هذا الامر لا يهمنى ، واعتقد انه لا صلة للصداقة بسبب وجودك هنا ٠٠ قل انه الربا او ربما شىء آخر ٠

ولحسن الحظ تقدم احد رؤساء الخدم من كريبان وقال له :

ـ كلفت ان انبهك الى ان الطعام سيعد فى الغرفة الجانبية حوالى الساعة الواحدة ، وذلك بمجرد ان يتم السيد الدوق والسيدة الدوقة استعدادهما للسفر ٠

والواقع ان كلا من الزوجين لجأ الى جناحه بمجرد وصولهما الى القصر ٠ فقد ذهب الدوق الى غرفته لاستبدال ثيابه ، بينما طلب سيدنى و ٠ سميث الى السيدة الدوقة التفضل باستقباله فى الصالون الصغير ٠

ـ اهلا بك يا سيد سميث ٠٠ سعيدة برؤياك ٠٠ واشكرك كثيرا ٠

ـ عفوا يا سيدتى الدوقة ٠ اردت ان اقول ٠٠

ـ ماذا اردت ؟

ـ ارجو عفوا ٠٠ انى اقاسى من صداع اليم ٠٠ هذا المجهود وهذا التعب طيلة خمسة عشر يوما ٠٠ فضلا عن انى لم اتناول طعاما ، اذ توجهت فورا الى المحطة لاحضار دفتر الشيكات والمبلغ الذى طلبته منى لنفقاتك النثرية ولكن الوقت كان متأخرا امس وفاتنى موعد المصرف ٠٠ ونسيت لغبائى صباح اليوم ان ٠٠٠٠

ـ لا تهتم لذلك ٠٠ فسيان عندى احضار ما طلبت على

الفور او فيما بعد ..

وبدأت تخلع خواتمها وتضعها على مائدة الزينة ، ثم استطردت تقول :

ــ خذ اقراصا من الاسبرين واسترح ولا تهمل فى العناية بنفسك ، فماذا لو فرض ان الوالد العجوز العزيز اراد بدوره ان يتزوج .. ان عليك فى هذه الحال ان تكون هنا ..

وحيا الوكيل واتجه الى الرواق دون ان ينطق بحرف ، ولكنه رفع ذراعيه نحو السماء وفتح الدوق باب غرفته فى هذه اللحظة وظهر فى رداء حريرى انيق للبيت ، وسارعت اديث اليه .

ــ عزيزى شارل ، اراض انت ؟ انى اشعر بمنتهى السعادة ..

ــ نعم انا سعيد جدا ياعزيزتى اديث ... وعلى ذكرة هل احضر لك مسيت الخمسين الف فرنك التى تحتاج اليها ؟

ــ كلا .. تصور انه نسى ذلك . سيأتى بها الى المحطة .

ــ شىء متعب يبعث على الضيق .. انه لا يفكر فى شىء ولكن لحسن الحظ انى هنا .

وسمع طرق على الباب ودخلت الوصيفة .

ــ ان حائكة ثياب سيدتى الدوقة قد وصلت ومعها الثوب الذى سترتديه للذهاب الى المحطة .

ــ سأذهب لمقابلتها .. الا تأتى معى يا شارل ؟

ــ لا استطيع وانا فى هذه الثياب ، سأرتدى حلتى ، واتمم ترتيب حقيبتى ..

وجمعت العروس الشابة اطراف ثوبها وبعثت بقبلة من اطراف اصابعها الى زوجها

ــ الى اللقاء سأعود حالا الى هنا مباشرة ، وسأحضر لك عقدى لتحفظه فى حقيبتك ، وننزل بعدها سويا لتناول طعام الغداء .. ان السعادة تلهب الجوع .. وانفلتت من الحجرة وهى تطلق ضحكة رنانة .

ــ ونظر الدوق اليها وهى تغادر الغرفة وابتسم وارتمى على احد المقاعد وانتقى سيجارة من علبة فى عناية ، واشعلها فى بطء ، واخذ ينفث الدخان فى الهواء محاولا ان يكون منه حلقات .

وبينما هو ينظر من النافذة اذ رأى سيارتى اجرة تقفان فجأة ويهبط منهما عدة اشخاص يندفعون الى داخل القصر . وتمتم الدوق فى غيظ وضجر :

ــ مزيد من الدخلاء .. اننا مع كل لم ندع احـدا وهذا سيتسبب فى تأخيرنا .

واخذ يقطع الغرفة ذهابا وايابا فى غيظ وملل ، ولفتت نظره ضجة مبهمة وراء باب الغرفة التى هو فيها ، وسمع حديثا يدور بين الوصيف وشخص مجهول يكرر فى صوت خافت :

ــ قل له اننى مسجل العقود ومعى شقيقى ...

واستدار الدوق وصاح :

ــ دعهما يدخلان ...

ودخل السيد كريبان ممسكا قبعته بيده تتبعه الانسة جوزيان وقد ارتسمت على وجهها علامات الذعر وواجهه الدوق فى تعال وكبر :

ــ يا سيد كريبان .. الا تعتقد انه كان يكفى ان اراك بعد الغداء ، وهل كان من اللائق ان تضايقنى فى فترة راحتى

ــ ولكن يا سيادة الدوق ..

واستدار السيد كريبان نحو الباب وفتحه قليلا ، ثم

اغلقه وادار المفتاح بالقفل باحتراس

ــ هيا ٠٠ هيا ٠٠ لا مكان هنا لهذه التمثيليات ٠

وهزت الانسة جوزيان رأسها ٠

ــ انهم هنا ٠٠ أسرعوا بنا ٠٠

ورمق الدوق الاثنين بنظرة احتقار :

ــ هل جننتما ٠٠ ما معنى كل هذا ؟

ولكن كريبان قال بسرعة :

ــ كفى ثرثرة ٠٠ ان البوليس هنا ٠٠ واذا اردت ان يقبض عليك فهذا شأنك ، واما انا فانني اريد النجاة ٠٠ هل النقود معك ؟

وتغيرت لهجة الدوق على الفور وسأل فى صوت متعثر :

ــ ماذا ؟ ما الذى تقوله ؟ النقود ؟ كلا ، ليست معى ٠٠ ان هذا الامريكى الغبى سيحضرها فى الساعة الرابعة ٠٠

ــ يا لسوء الحظ ٠٠ ! ولكن العقد على الاقل

ــ انها تحتفظ به ، والمفروض ان تحضره لى قبل تناول الغداء ٠

ــ اذن ٠٠ فلنأخذ ما هو موجود ٠٠ لقد استوليت فعلا على اربعمائة الف فرنك ٠ كما اخذت عمولتى من بائع الاثاث ٠٠ هيا أسرع ٠٠

وأسرع كريبان الى خطف المجوهرات التى وضعتها الدوقة فوق مائدة الزينة واخفاها فى جيبه بينما سمعت فى الخارج اصوات تقترب ، وندت عن الانسة جوزيان صرخة :

ــ ها هم قد وصلوا ! ٠٠ !

ودار كريبان فى الغرفة قلقا ، بينما وقف الدوق وقد استولى عليه الفزع ٠

ــ وماذا بعد ؟ لقد وقعنا فى شرك ٠٠ وانتهى الامر ٠٠ من الذى ابلغهم عنا ! اين لنا بمثل هذه الصفقة البديعة ٠٠ بالخيبة الامل والشقاء !

ورأى كريبان غرفة الزينة ، فسأل الى اين يؤدى هذا الباب ؟

ــ الى غرفتى ٠

ــ وبعد ذلك ؟

ــ الى سلم الخدم ٠٠ وهو ينتهى الى شارع مثيل خلف ٠٠

ــ ايها الغبى ٠٠ الم يكن فى امكانك ان تقول ذلك من قبل ، ! ساهرب . الى اللقاء . . وابق انت هنا اذا أردت

ــ وهل اهرب فى مثل هذا اللباس ؟

ــ الا اذا فضلت لباس السجن والطاقية ٠٠ !

وهنا سمعت عدة اصوات فى الرواق تتساءل على الجانب الاخر من الغرفة :

ــ أهو هنا ؟ كلا ؟ نعم ؟ الباب المقابل ؟ هناك ؟ أهو موجود ؟ أجب ، يا للعنة ٠٠ ! قلت لك انى رئيس البوليس ٠

ورجت الباب ضربة قوية ٠

ــ افتح باسم القانون ، والا حطمت القفل ٠٠ !

وانسحب كريبان الى غرفة الدوق وهو يسخر فى همس ٠

ــ حطم القفل ، وأما نحن فقد حطمنا الخزانة ٠٠ ! الى اللقاء

وتمتمت الانسة جوزيان فى فزع :

ــ لو كنت أعلم ٠٠ ! انا التى كانت على موعد للعمل فى السينما ٠٠ ! لماذا حضرت الى هنا ؟ ٠٠ أواه يا الهى ٠٠ ! وما الذى كسبته ٠ !

وهزت الباب ضربة كتف قوية ٠

وجذب كرثيان الدوق بعنف بينما دفع بالآنسة جوزيان أمامه وأغلق الباب خلفه بالمفتاح وعبر الغرفة الى سلم الخدم ، وأغلق الباب المؤدى اليه أيضا بالمفتاح بعد خروجهم منه وقال :

ــ آمل الا يكونوا قد عمدوا الى مراقبة سلم الخدم ، هيا اسرعوا ٠٠

وتمكن أحد المهاجمين من تحطيم باب غرفة الدوق ، واندفع سبعة أشخاص الى الداخل واتجه واحد منهم نحو باب غرفة الزينة وحطمه بكتفه ، ولكن كان هناك باب آخر فصاح :

ــ لقد هربوا عن طريق شارع منيل ؛ ارسلوا هناك احدا على الفور ٠٠

وانفلت رجلان من المجموعة وانطلقا يهبطان درج القصر الرخامي بسرعة خاطفة ، بينما كان القائم بالاعمال الامريكى يرتقيه وقد استولى عليه الفزع ، وكان يتقدمه شخص ضئيل الجسم يثرثر باستمرار اثناء صعوده ٠

« كان يجب على أن أشك فى الامر عندما قال لى رجل البوليس انه رأى كريبان واستراب فى الامر ، وكلف زميله بحراسة الهدايا ، وكلمنى تليفونيا فسارعت بالحضور » ٠

وفتح الباب المواجه لغرفة زينة الدوق ، وظهرت الدوقة دى بوربون داميكور فى ثوب للخروج ٠

واستدار الرجل القصير وحياها :

ــ انا رئيس البوليس يا سيدتى ، ان لديك محتالين دوليين ، رجل وامرأة وشريكهما ٠٠ رجل يدعى كريبان ٠٠

ــ مسجل العقود ؟

ــ مسجل عقود ؟ انه مراب يدير وكالة مشبوهة ٠

ــ ولكن اين زوجى ٠٠ ؟ اين الدوق ؟

ــ الدوق ٠٠ أى دوق ؟ الشقى الذى هرب لتوه وآمل أن أقبض عليه فى يوم من الايام ٠٠ انه ليس دوقا أكثر منى رئيسا للجمهورية ان اسمه فيكتور ديبوا ٠٠ أو هذا على الاقل هو اسمه الذى قضى تحته عقوبة سجنه الاخيرة ٠

وتقدم القائم بالاعمال الامريكى وأمسك بذراع اديث :

ــ عزيزتى الآنسة سومفورد انه لص ٠٠ ولم يكن شيئا على الاطلاق ٠٠ وأرجو على الاقل الا تكونى قد أعطيته نقودا ؟

وغاض الدم من وجه اديث وغمغمت :

ــ لص ؟ - اذن ٠٠ اذن أنا لست دوقة ٠٠ ! لقد انتهى كل شىء ٠٠ !

وانهارت على مقعد وهى تبكى :

وسمعت فى غير وضوح رئيس البوليس وهو يشرح الامر للقائم بالاعمال :

ــ افهمنى يا سيادة القائم بالاعمال ٠٠ ان ضابط الصف برنار ، وهو الشرطى الذى كلف بحراسة هدايا الزواج بناء على طلب السيد سميث ، وكيل شركة سومفورد ، هو الذى أثار شكوكنا ٠٠ كنا نعلم ان فيكتور ديبوا يعد العدة لصفقة أخرى ، وتحدثت الصحافة عن هذا الزواج والدوق بوربون داميكور الحقيقى موجود ، وهو من أسرة ملكية عريقة ولكننا لا نعرفه ، وفى هذه الحالة نقوم بجمع المعلومات خوفا من قيام الظاهرات ٠ ووصلتنا صباح اليوم معلومات أكيدة تفيد أنه يقيم بعيدا عن باريس ولا يوجد بها فى الساعة الراهنة ، وحاولنا

على الفور التحقق من شخصية سميه ، وجاءت مكالمة برنار التليفونية فارشدتنا الى الاثر • ولولا ظهور كريبان لما اكتشف شيء ولتمت المؤامرة التى دبرت باحكام وانتهى الامر ••

واستولى الحرج على القائم بالاعمال فقال نحو اديث :

ــ لاتحزنى .. فلم تكن هذه غلطتك .

وانتابت الفتاة رجفة ، وهبت واقفة :

ــ لقد انتهى الامر •• لن ابكى بعد الآن •• ربما بكيت بسبب الغيظ ، وهذا كل ما فى الامر .

واتجهت نحو ركن من الغرفة وضع فيه جهاز تليفون •

ــ آلو •• اعطنى رقم ٢٧ ــ ٢٣ ، انفاليد •• بسرعة من فضلك •

وانتظرت فى لهفة ، وبينما استعد رئيس البوليس لبارحة الغرفة ، فقد علت وجه اديث ابتسامة حزينة •

ــ ارجوكم أيها السادة أن لا تبرحوا اماكنكم •• لن تستغرق مكالمتى سوى دقائق قليلة •

وهمست تحدث نفسها :

ــ ايه يا فرنسا الصغيرة .. لو انه اتضح الآن ان حاجاتك القديمة الجميلة مزيفة ، لكان امرا يؤسف له أشد الاسف •

ودخل شرطى يقول : ــ لقد هربوا يا سيدى الرئيس ، ولكن لدينا رقم سيارة الاجرة التى ركبوها ، وسوف نجدهم •

وعلا صوت الفتاة الشابة :

ــ آلو .. انفاليد رقم ٢٧ ــ ٢٣ ، اطلب من فضلك .. آه لقد انقطعت المكالمة .

ولم تغضب الانسة اديث سومفورد وقد أصبحت لتوها مواطنة فرنسية ، وعادت تطلب المكالمة ..

الفصل الخامس

عاد سيدنى سميث الى مكتبه وقد انهكه التعب وخارت قواه من المجهود الذى بذله •• والقى بنفسه فى مقعد جلدى كبير ، واسند رأسه الى كتفه واغمض عينيه وغلبه النعاس ، ولكن رنين جرس التليفون ايقظه وقطع عليه أحلامه •

وترك المقعد متثاقلا وامسك بسماعة التليفون :

ــ آلو .. بحق الشيطان ، الا يمكنكم تركى فى سلام •• ؟

وتغيرت لهجته فجأة :

ــ آه •• انا آسف وارجو عذرا يا سيدتى الدوقة •• نعم ، يا سيدتى الدوقة •• كيف ؟ لم تعودى السيدة الدوقة ؟ لماذا ؟ ارحل الدوق ؟ نعم أحسنا ولكنك ستقابلينه فى المحطة •• ؟ ساكون هناك فى الساعة الرابعة •• والساعة الآن الواحدة والنصف •• كلا ؟ يجب حضورى فى الحال .. حسنا ، يا سيدتى الدوقة •• ولكن لماذا ؟ حسنا •• حالا •• سآتى فى الحال •• آه يالغباوتى •• نعم •• سآتى باسرع ما يمكن •

ورمى بالسماعة على المائدة دون أن يفكر فى وضعها على الجهاز ، وعاد الى المقعد حيث وضع سترته وهو يفرك عينيه •

« انها تريد حياتى .. ستقضى على .. لن أتحمل كل

ذلك ٠٠ لقد نقص وزني فعلا كيلوجرامين ،

وارتدى سترته وهو يتهالك على نفسه ويتأوه ، وحاول عبثا ربط رباط عنقه ، وأخيرا تركه متدليا على صدره ، وغادر الغرفة وهو يجر ساقيه ـ وهبط الدرج وهو لا يعي شيئا ٠

ولحسن الحظ عثر في الطريق على سيارة وعندما وصل الى شارع « مالاكوف » ودخل القصر ، اصطدم في الرواق بخادم مذعور كان يتخبط في كل اتجاه ، فاوقفه سميث : « ماذا دهاك ٠٠ ؟ ما الخبر ؟ ٠٠ »

ونظر اليه الخادم وهو يرتجف :

ـ أواه يا سيدي ٠٠ ! اصعد يا سيدي وسيقولون لك ما هناك ٠٠ اني أعمل هنا منذ عشرين عاما ولم أشهد مثيلا لما حدث ٠

وصعد سميث الدرج وقد اعتراه شيء من القلق ، وعندما وصل الى باب الجناح الخاص باديث ، دق على الباب بخفة ، ولما لم يجب عليه أحد فتحه قليلا ـ ولكنه فتح فجأة على مصراعيه ، فاختل توازن سميث ورأى نفسه يندفع داخلا رغم أنفه ٠ ووقفت اديث أمامه وهي غاضبة مقطبة الجبين ترمقه بنظرات ساخرة !

ـ ها قد حضرت أخيرا ٠٠ ! أيها الغبي ٠٠ ! أيها المغفل ٠٠ ! لقد أجدت العمل وأحسنت الاختيار ٠٠ ؟ تهانئي لك ٠٠ !

ـ ولكن ٠٠ يا سيدتي الدوقة ٠

ـ اصمت ٠٠ انك أغبى مخلوق عرفته ٠٠ الأفضل لك ان تسأل السيد ٠٠

وانسحبت جانبا فظهر خلفها رئيس البوليس والقائم بالاعمال بالسفارة الامريكية وهما يتحدثان بصوت منخفض ٠ واتجه سميث نحوهما وهو يتعثر في خطاه :

ـ عفوا ، أيها السادة ٠٠

ـ المسألة بسيطة جدا ، يا عزيزي سميث ٠٠ ان الدوق لص شقي ٠

وصاح الوكيل في صوت مختنق :

ـ هذا غير صحيح ٠٠ انا واثق من ذلك ٠٠ لدي كل المستندات ٠٠ ومعي خطاب من مسجل عقود الدوق ٠٠ ماذا تقولون ٠٠ كريبان ٠٠ انه رجل شريف ٠٠ وأما الدوق فقد استعلمت عنه ، انه مفلس بعض الشيء ، ولكنه رجل نزيه ٠٠ بكل تأكيد ٠٠

وابتسم رئيس البوليس رغما عنه ٠

ـ لقد أوقعوك في الشرك يا عزيزي ٠٠ ان الدوق ٠٠ دوقك انت ٠٠ ما هو الا محتال استغل البساطة وحسن النية لديك ولدى الآنسة سومفورد ليحقق أكبر عملية نصب في حياته الاجرامية ، ونحمد الله اننا وصلنا في الوقت المناسب لوقفه ومنعه من تكليفكم أكثر من بضع مئات الالوف من الفرنكات ٠٠

ـ ولكن ، يا سيدي ٠٠ انا واثق ٠٠ أنظر ٠٠ هناك ٠٠

ودق أحدهم على الباب بخفة ، وفتحه قليلا دون انتظار جواب ، ودخل شاب ممسك بيده بطاقة وآلة تصوير وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة :

ـ استميحكم عذرا ٠٠ أعتقد ان هذه هي سيدتي دوقة بوربون داميكور التي أتشرف بمخاطبتها ٠٠ ولكن ٠٠ ولكن ٠٠ ان المرء يدخل هنا كما لو كان داخلا طاحونة ٠٠ لا أحد في الطابق الاسفل ، ولا أحد على الدرج ٠٠ والواقع انني سمعت أصواتا فاتجهت نحوها ٠٠ انني محرر في جريدة باريس الجديدة ، وأحب ان أعرف مشاعر سيدتي الدوقة وسيدي الدوق والتقط لهما بعض الصور لنشرها في صحيفتنا ٠

واوقفت ايديث سميث بيدها وهو يتجه نحو الدخيل ، واقبلت على المصور الصحفي وهي تبتسم .

ـ قل أيها السيد أني سعيدة جدا .. فقد كان هذا الزواج حلم حياتي . فلم اكن اعتقد أني سأجد زوجا يجمع بين كل هذه المشاعر السامية وهذا اللطف والكرم ، ومما يؤسف له أنه متوعك بعض الشيء .. ولا شك في أنه سيأسف جدا لعدم مقابلتك .

ـ أرجو على الأقل الا تكون الوعكة ذات بال .

ـ كلا .. كلا .. ان هؤلاء السادة اطباء دعوتهم للعناية به .

ورفع رئيس البوليس يده وقال :

ـ اننا نعد باستعادته لصحته .

وحيا الصحفي .

ـ سيدى الطبيب .. ثق انني تاثرت جدا ، واعتقد ان وجودكم لابد وان يكون له أحسن الاثر .

ـ بالتاكيد .. سنبذل كل ما في وسعنا ..

وبعد لحظة خرج محرر صحيفة « باريس الجديدة » بعد أن حياهم باحترام وهو مرتاح وفي شيء من الحيرة ، ولم يكد يخرج حتى صاح سميث :

ـ ما معنى كل هذا ؟

واستدار الى رجال البوليس :

ـ ارجوكم يا سادة .. اعملوا كل ما يلزم .. يجب ان تجدوا هذا اللص .. ستوضع جائزة قدرها ١٠٫٠٠٠ دولار للقبض عليه .. ولا شك أن السيد سومفورد سيوافقني على ذلك ..

وقاطعته ايديث في قسوة :

ـ هذا مستحيل في موقفي هذا .. ان شرفي وكرامتي يتعرضان للخطر .. دعوا هذا اللص يطير .. لقد طار

معي فعلا في الطائرة .. ويلذ له الآن .. أن يطير وحده .. ولا يجب أن يقال ان لصا هزيلا قد سخر من ابنة هنري سومفورد .. فنحن الامريكيين لنا شرفنا وكرامتنا .. ان ابي العجوز العزيز عمل من أجل زواجي ويعتقد انه صاهر دوقا .. واذا علم ان هذا الدوق محتال ، وذاع ذلك بين الناس فان اسهم سومفورد ستهبط مائة بنط على الاقل .

والتفتت الى سميث الذي اربد وجهه :

ـ واما انت ، فاتركني وشأني .. سأتولى الامور بنفسي في المرة المقبلة .. انك لا تصلح الا للمعلبات .. ! وحتى عندما تبيعها ، فانك كالدوق تضيعها .. ، اني لا أريد .. لا استطيع ترك البوليس يتعقب هذا الرجل .. ان أمريكا بأسرها ستضحك وتسخر منا .

ورفع القائم بالاعمال الامريكي رأسه وقال :

ـ ان الآنسة سومفورد محقة فيما تقول .

ـ اني محقة بكل تأكيد ، وهاكم البرقية التي بعثت بها لتوى الى والدي العزيز .. وهذا نصها : « بيعت مائة علبة من لحم البقر المحفوظة ماركة بوربون داميكور . كل شيء على ما يرام » ولا يجب أن يقال غدا في الولايات المتحدة : .. آه ، هذه المعلبات الجديدة لسومفورد .. انها مجرد مهزلة .. هذا هو بالتاكيد ما سيقولونه .. أليس كذلك ؟

والتفتت الى رئيس البوليس :

ـ أرجو أن تفهمني .. سيعطيك سميث ألف دولار لتوزعها على رجالك تعويضا لهم عن تعبهم ولتسكتهم .. وسنستعين بهم فيما بعد اذا اقتضى الامر .. قد احتاج اليهم في المستقبل ولكن المهم الآن هو الصمت .

وقاطعها القائم بالاعمال الامريكي :

– ولكن يا سيد سميث ، ما حكاية هذا القصر وهذه الاوراق التي تحدثت عنها ؟

– بكل تأكيد ·· ان معي بعضها ، والباقي مع الآنسة سومفورد وهي تحتفظ بها على ما اعتقد ··

وأيدت اديث قوله :

– هذا صحيح ·· انها لدى ·· انها في حقيبتي ·· وقد نسيت ان أعيدها الى الدوق ·· أو الى اللص ·· كنت أريد ان اعطيها له هذا المساء ··

وأحمر وجهها واختنق صوتها :

– عندما نكون منفردين ·· فقد كانت هدية الزواج ·

ودخلت الغرفة المجاورة وقد انتابتها رعشة خفيفة ، واستأنف سميث الحديث قائلا :

– عندما قابلت الدوق ·· أو الرجل الذي قيل لي عنه انه دوق ·· كان معه الرجل القصير ·· كريبان ·· وقال لي الاخير ان للدوق املاكا بمقاطعة « لاند » ، وحولني الى مسجل عقود آخر ، السيد روميجو ، في بلدة أخرى ·· وقال لي هذا ان والد الدوق الذي كان يلهو في باريس قد رهن القصر وكل الاراضي فيما مضى ، وزاد الدوق الحالي قيمة الرهن بعد أن تركه والده مفلسا ·· وقد كلفني سداد الرهن ثمنا باهظا ، وحصلت فعلا على موافقة من الدوق ، ولو أن ذلك لم يكن ضروريا ، ولدى الآن امضاء الدوق لمعالجة أمور أخرى ، وبعبارة أخرى ، معي توكيل منه · وقمت كذلك بسداد قيمة كمبيالات كانت مستحقة عليه ·· ·

وقدم سميث ورقة مكتوبة على الآلة الكاتبة ، وتحمل امضاء دوق شارل دي بوربون داميكور ·

وتناول رئيس البوليس الورقة وفحصها بعناية ، ودخلت اديث في اللحظة نفسها ممسكة بيدها حزمة من

الاوراق ، بينما واصل الوكيل حديثه ·

– واجابه السيد روميجو بانه سيرسل الى مستندات الرهن الموجودة في مكتبه والخاصة بعدد من عملائه ، وأما باقي المستندات فان كريبان قد اشتراها وباعها لي ·· ويتضح من ذلك أن القصر موجود فعلا ، كما أن الدوق حي يرزق اذ أن توقيعه موجود على هذه الاوراق ·· ويرجع تاريخ آخر مستندات الرهن الى شهرين ، وقال لي الدوق عندما تعارفت به انه يمر بباريس في زيارة قصيرة سيعود بعدها الى قصره ·

وقاطعه رئيس البوليس : – ان احد التوقيعين اللذين أريتهما لي مزور ، واكاد أكون واثقا من ذلك · والحقيقة في رأيي هي كما يلي : كريبان ، وهو محتال خبيث معروف من قديم الزمن ، لا يقتصر فقط على القيام بعمليات مشبوهة ، بل يقوم بتسليف النقود بربا فاحش ، ويحتمل جدا أن يكون والد الدوق الحقيقي بعد افلاسه قد عقد سلفة ضخمة من كريبان ، وحاول ابنه تغطية هذا الدين ، ولكنه لم يكن يملك المال اللازم ، فطلب من الدائن سلفة أخرى على الاراضي التي كانت مرهونة فعلا منذ وقت طويل ·· وتمكن كريبان الذي كان يحتفظ بخطاب من الدوق الحقيقي من تقليد توقيعه أو تكليف فيكتور ديبوا بذلك ·· ان التوقيع بسيط جدا ومن السهل تقليده ·· وهذه المسألة التي دبرت بعناية خلال بضعة أيام مكنت هؤلاء المحتالين من العمل دون أن يدرى الدوق الحقيقي الذي يقطن بعيدا في « لاند » أي شئ عن هذا التلاعب باسمه ·· ولكن ·

وهنا صاح الحاضرون الذين كانوا يتتبعون حديثه باهتمام : – ولكن ··· ؟

– حسنا ، ولكن الى أن يتقدم الدوق الحقيقي بشكوى

ضد هذا التزوير ·· والى أن يثبت أن الامضاء الذي قلده فيكتور ديبوا مزور ، وأن الامضاءات التي وقع بها أمس واليوم على سجلات البلدية والكنيسة لم تكن للدوق بوربون داميكور الحقيقي ــ فانك يا آنسة ستبقين دائما دوقة بوربون داميكور · ويجب لكي تفقدي لقبك ، ان يثبت التزوير بالبرهان القاطع ، وهذا صعب ويتطلب وقتا طويلا · وأما القصر والاراضي فهي ملك لك ، وستظل كذلك وفقا لارادتك ، اذ ان مستندات الرهن المصدق عليها من الدوق الحقيقي في حوزتك وقد دفعت ثمنها · وقد أهمل مسجل العقود في « داكس » ، الذي اعتقد انه يتعامل مع الدوق الحقيقي الموجود في باريس ، في التحقق من صحة الامضاء الموقع به على التوكيل · · وهذا هو مصدر كل المتاعب · وعلى كل حال فان مسجل العقود لا يهمه معرفة المشتري ما دام الثمن يدفع وللدائنين الحق في بيع مستندات الرهن · والواقع يا آنسة ان الدوق الحقيقي هو ضيفك في القصر ، فانت تملكينه من الناحية القانونية ، ولايستطيع احد ان يمنعك من حمل اسم بوربون داميكور الى أن يتم القبض على فيكتور ديبوا ، ويثبت التزوير ·· والان يا آنسة ، اتشرف بان أقدم اسمى واجبات الاحترام ·

واتجه رئيس البوليس من جديد نحو الباب مصطحبا معه زميلاه وأضاف بصوت منخفض :

ــ سنقوم بحملة تفتيشية صغيرة لدى كريبان ·· فهو لم يتشرف برؤيتي منذ زمن طويل ، واذا كنت قد اشتركت بنفسي في هذه القضية ، فما ذلك الا لتسوية حساب بعض المسائل المعلقة مع هذا الصديق القديم ·

ولم تكن اديث تواصل الاستماع اليه ، اذ سالت سميث في صوت خافت :

ــ داكس ؟ أين توجد هذه البلدة ؟

ــ في الجنوب ، على مقربة من بياريتز ·

ــ كم الساعة الان ؟

ــ الثانية يا آنسة سومفورد ·· ولكن ما الذي تنوين ؟

ــ ساعيدك الى ممتلكاتك العزيزة ، وأحاول اصلاح ما افسدت ··

ودقت الجرس واعطت الاوامر بدون أن تنتظر جوابا :

ــ اعدوا سيارتي الطوربيد وحقيبتي ·· سارحل خلال ثلاث دقائق ·

ــ ولكن هذا جنون يا آنسة سومفورد ··

ــ ثم ماذا ؟ اترى هناك وسيلة اخرى ؟ ..كلا ! انني لن استريح البال يا سيد سميث . انني ساسوي اموري من الان فصاعدا بنفسي ·

ونصحها الوكيل وقد اخجله جوابها

ــ يحسن بك اذن ان تاخذي معك اوراقك على الاقل بطاقتك العائلية · وشهادة الزواج ·

ــ انك على حق ·· أرأيت انني لازلت احتفظ بشيء من النباهة ·

وامسكت بحقيبة السفر ··

ــ ليست هذه هي المغامرة الممتعة التي كنت أحلم بها .. ولكن ما العمل ·· ؟

وامسكت بيدها الاخرى كلبها « كنج تشارلز » الذي كان يدوم ·

ــ تعال ياكلبي الصغير ·· تعال لتروح عن نفسك ·

وارتدت في الفناء معطفا للمطر ، ثم ركبت السيارة دون ان تأبه بقلق السائق الذي يرافقها ، واتخذت مقعدها امام عجلة القيادة وقالت :

ــ أانت على استعداد ؟ ساقود انا السيارة وما عليك الا ان ترشدني الى الطريق وجهتنا قصر داميكور في

« داكس » أليست الخريطة معك ؟

وقال سميث محددا الطريق :

ـ « بوردو » أولا ثم طريق « بايون » .

ـ حسنا ! سنقطع ثمانمائة كيلو متر بدون توقف ..... أليس كذلك أهناك ما يكفي من الوقود والزيت . هيا بنا اذن ..

ودار المحرك وعلا ضجيجه في الفناء ، وصاح سميث والقائم بالأعمال :

ـ حظا سعيدا .

وابتسمت اديث ورفعت اصبعها مهددة .

ـ نعم ولكما أياكما والثرثرة .. أريد صمتا تاما :

وانطلقت السيارة كالسهم من باب القصر الى الشارع وصاحت اديث بالسائق :

ـ دلني على الطريق

ومال السائق وهو يصيح بالتعليمات والهواء يصفر في آذانه ، ودارت اديث بالسيارة على عجلتين في ميدان فيكتور هوجو ، وانطلقت تسابق الريح في الطريق الممتد أمامها .

وكان هذا أشبه بسباق الموت ـ وصلت الفتاة الى « شارتر » في الساعة الثالثة وفي الخامسة كانت تعبر بلدة « تور » ودخلت مدينة « بواتييه » في السادسة الا الربع دون أن تترك عجلة القيادة لحظة واحدة . وكان مؤشر السرعة يتذبذب منذ القيام ما بين مائة ومائة وثلاثين كيلو مترا ، ولم تتوقف الرحلة الجنونية طوال النهار الا في اللحظات اللازمة للتزود بالوقود وحل المساء ثم الليل .....

وواصلت السيارة انطلاقها عبر غابة « لاند » المترامية الأطراف ، وتركت طريق بايون عند « سان ـ جيور »

وعبرت « داكس » وانطلقت في طريق ضيق بعض الشيء متجهة نحو سان سيفير وعندما عبرت قرية نائمة ظهر امامها ظل قائم ، فهدأت سير السيارة وتوقفت وسألت هذا الظل الذى خيل لها أنه لفلاحة ضخمة الجسم :

ـ أيتها السيدة .. كيف الطريق الى « ميجرون » ؟

واجابها صوت قوى مرح على الفور :

ـ لست سيدة .. أنا القس .. الاب دونا .. في خدمتك دائما ياسيدتي .. الطريق الى « ميجرون » انه طريق وعر لا يصلح للنزه ليلا بالسيارة يابنيتي المسكينة .. وعلى العموم عليك بالانطلاق صعودا في خط مستقيم لمسافة أربعة كيلو مترات .. اتعرفين احدا في « ميجرون » ؟

وبدت عليه علامات الشك ولكن اديث واصلت الحديث :

ـ بكل تأكيد ، اعرف مكان القصر ..

ـ اى قصر

ـ قصر « دامبكور ... »

ـ ولكن الجميع ينامون في مثل هذا الوقت .. وفضلا عن ذلك فان السيد الدوق وزوجته متغيبان ، ويقضيان شهر العسل .

وضغطت اديث على محرك السيارة فعلا ضجيجه :

ـ اه ان زوجته بالتأكيد ليست .. متغيبة كما تقول . وأريد أن أقول لك ياسيادة الاب .. انني أنا الدوقة دى بريرى دامبكور .. !

وانطلقت السيارة تاركة القس وقد تملكته الدهشة والذهول .

وفتح فمه ليجيب ولكنه عندما أفاق لنفسه وتبين الحقيقة كانت السيارة قد ابتعدت كثيرا فهز كتفيه وانطلق

مسرعا وهو فرح نحو أبرشيته ·

ـ مارى ليس ·· مارى ليس ·· ياليا من قصة حاولى ان تتكهنى بمن رأيت منذ برهة قصيرة اثناء عودتى ·· انها الدوقة دى بوربون داميكور ·· زوجة عزيزنا شارلو والان طاب مساؤك واحلام سعيدة ·· ياليا من قصة ·

كانت اديث فى هذه الاثناء تتبع التعليمات التى تلقتها وسرعان مارأت امامها على ضوء مصابيحها الكاشفة «بيوت ميجرون» الواطئة والقرية كلها غارقة فى سبات عميق حتى انه لم يكن هناك كلب واحد ينبح ·

ومرت الفتاة بسيارتها فوق صخرة ، واصطدمت بها البابات محدثة صوتا مزعجا واستمرت السيارة مندفعة بفعل سرعتها الجنونية قرابة مائة متر، ثم قلت السرعة شيئا فشيئا ولما حاولت اديث استعادة سرعتها، علا ضجيج المحرك ، ولكن السرعة اخذت فى الهبوط تدريجيا ولم تثمر جميع المحاولات لزيادتها وتوقفت السيارة أخيرا

ياللشيطان ، ماذا حدث ؟

ونزلت من السيارة ورفعت غطاء المحرك ، ووقف السائق الى جانبها ينير المحرك بمصباح الطوارئ الكاشف ·

ـ انكسر المحور الخلفى ولا يمكن عمل شىء الان ·· لو كان الوقت نهارا لكان فى الامكان تغييره ، ولاقتضى ذلك لا اقل من ثلاث ساعات واما الان ·· فى سواد الليل ·· لا ليس فى مقدورنا سوى الانتظار ·

ـ ولكن ·· يجب ان اصل ·· لابد من ذلك

وبدت من اديث حركة تدل على الشجاعة والتصميم ، وامسكت باحدى يديها حقيبتها وبالاخرى كلبها كنج تشارلز ووضعته على الارض ، ثم اشارت للسائق الى الطريق المظلم ·

ـ هل بنا ·

وانطلقت سائرة فى الليل بهدوء ، والسائق يتبعها وقد اضناه التعب وسارا متقدمين فى خط مستقيم وعثرا فى الطريق بعد ربع الساعة على لافتة كتب عليها

« قصر داميكور ·· كيلو متر واحد » ·

وواصلا السير فى سكون الليل ، وقفز الكلب الى الامام فجأة وانطلق كالسهم ، ثم سمعته الفتاة ينبح بشدة ، وسمع نباح آخر يصدر من تحت الاشجار ، فأخذت اديث تجرى وظهر امامها باب حديدى فى جدار عال ، وتوقف الاثنان امامه ، وحاولا النظر خـــلال القضبان ، واضاء السائق مشعله وظهرت فوق رأسه لافتة معلقة كتب عليها

« قصر داميكور » القرن السادس عشر ·· الزيارة يومى الاثنين والسبت الاستعلام من حارس الباب فى كوخه الى يمين الباب ·· اللجنة التاريخية بمقاطعة لاند » ·

ـ لقد وصلنا ياسيدتى ·

وانحنى بجسمه ودفع الباب فصدر عنه صرير عال ونجح فى فتحه ، ولم يستطع الامتناع عن الهمهمة :

ـ لعل وعسى ان نجد احدا ·

وقالت اديث فى صوت جلى قاطع :

ـ سنجد احدا . لابد وان يكون هناك شخص ما ·

وانطلقا فى طريق ممهل نبت فيه الاعشاب ، واصطدمت مرارا بقطع من الاحجار المبعثرة وتعثرا فى سيرهما ، وأخيرا بدت امامها كتلة ضخمة داكنة تناطح السماء ... القصر

وواصلا السير والتقدم ، واخذت معالم القصر تبدو فى وضوح اكثر ومد السائق يده فاصطدمت بخشب احدى

النوافذ .

واخذ يدق عليها بشدة وبعنف وتبع ذلك صمت طويل ، وامسكت اديث بانفاسها واخذت تصغى بدورها واخيرا صاح صوت مبحوح :

ـ من هناك ؟! .. اننا لا نستضيف هنا كل من هب ودب في الليل ..

وتقدمت اديث قليلا فاصطدمت قدمها بدرجة اعتلتها ، واستدارت فوجدت نفسها فيما يشبه شرفة مسقوفة وظهر أمامها باب ، فقامت بدورها بالدق عليه بقبضة يدها . وتغلغل صدى الصوت في أعماق القصر .

ـ انتم مجانين ! اتراهم لا يريدون السكوت ؟ هاهم اشخاص ..

ـ افتح .. ارجوك .. انا مسافرة .. وأريد التحدث الى سيادة الدوق .. وقال صوت آخر :

ـ دعك يابيرو .. سأذهب انا اليهم .

وامسك المسافران بانفاسهما وهما ينتظران ، وظهر شريط رفيع من الضوء تحت الباب بينما كان احدهم يسحب المزلاج ويدير المفتاح .. وانفتح الباب ورأت اديث أمامها رجلا في ثياب الصيد ، طويل القامة متين البنيان حسن المظهر يرفع مصباحا بتروليا فوق رأسه ، فانار بضوئه شعره الكستنائي ووجهه الصبوح . ودخلت الرواق الفتاة التي كانت تستند الى الجدار وقد ارهقها التعب وهي تتهالك على نفسها .

ـ ما الخبر ياسيدتي .. وماذا تريدين ؟ اننا الآن في العاشرة مساء وليس هذا بالوقت المناسب للزيارة .

وعلت وجهه ابتسامة لطيفة ومد يده لمساعدة الفتاة المجهولة على الدخول وتمتمت اديث في اعجاب وسألت في صوت متهدج :

ـ ارجو أن اقابل الدوق دى بوربون داميكور ..

ـ ولكن انا هو الدوق شارل دى بوربون داميكور .. في خدمتك ياسيدتي ..

ـ احقا تقول ؟ الدوق .. الدوق الحقيقي ؟

ـ نعم ياسيدتي .. بالتأكيد .. ولست ادرى ما اذا كان هناك دوق اخر ..

فلست أعرف احدا سواى يحمل لقب بوربون داميكور ان فرعنا ينتهي بانتهائي .. وارتمت اديث على مقعد مريح من طراز ، هنري الثاني ، كان قريبا منها ، واسبلت اجفانها ومالت برأسها على كتفها . وردت في كلمات متقطعة :

ـ آه .. ما أسعدني .. انت شاب لطيف قوى البنية .. اني سعيدة .. سعيدة جدا .

وتراخى جسمها واغمضت عينيها وانبسطت يداها وراحت في سبات عميق . وهب الدوق مسرعا ومناديا .. بعد ان وضع المصباح على الارض .

ـ مرجريت .. اسرعى انظرى لقد أغمى عليها .

وركع الى جانب الفتاة واخذ يدلك يديها ، وحضرت امرأة عجوز وهي تدمدم

ـ يا الهي .. ما الخبر ؟ ما الذى حدث ياسيدى الدوق ؟

ـ اتسألينني وانا لا اعرف شيئا ؟ انها احدى المسافرات .. على بماء الكولونيا اسرعى .

ومالت الفلاحة العجوز ، وهي امرأة نحيفة كست وجهها التجاعيد ولها نظرات تنم عن الطيبة والدهاء والقت نظرة فاحصة على اديث وقالت :

ـ ان الامر غاية في البساطة .. انها نائمة .

ـ اذن اسمعى .. اتعبى واعدى لها حجرة .. ودعيها تنام .

ـ حجرة ؟ اية حجرة ؟ ليست هناك حجرات .

وبدا على وجه الدوق شيء من الحرج . وتردد ثم قال في هدوء .

ـ حسنا .. اعدي لها حجرتي .. لا تقلقي . سأنام في مكان آخر لا اهمية لذلك عندي .. اعملي بما اقول .

واستدار الى السائق الذي كان يقف ساكنا الى جانب المدفأة الموجودة في نهاية الغرفة والتي بدأت النيران تخمد فيها .

ـ من هذه السيدة الشابة ؟

واجاب السائق في تردد .

ـ آسف ياسيدي الدوق . لست أعرف تماما .. هناك من يقولون انها الدوقة .

ـ الدوقة ؟ اية دوقة ؟

ـ اني لا أعرف شيئا ويستطيع سيدي الدوق سؤالها عندما تفيق من نومها ، وكل ما أعرفه عنها .. انها ثرية امريكية .. ثرية جدا .. جدا .

ودلل على ثرائها برفع احدى ذراعيه الى اعلى على قدر المستطاع وارخاء الاخرى نحو الارض حتى كادت تلامسها .

ـ ثرية .. ثرية جدا .

ـ هذا مفهوم . ولكنه لا يوضح لي ما تفعلونه هنا .

وتثاءب الرجل وضغط على فكه .

ـ وماذا يمكنني ان اقوله .. اني اعمل في خدمتها منذ اربعة ايام فقط .. انها متزوجة وغير متزوجة . آه ، أيسمح لي سيدي الدوق بالجلوس .. أكاد اموت تعبا .

وفرك عينيه بيده بقوة وواصل الحديث .

ـ لقد اصدرت الاوامر بالرحيل بعد الغداء .. وهانحن هنا :

وتثاءب مرة أخرى ومد يديه الى الامام كمن يتحسس طريقه ، واتجه الدوق نحوه ووقف أمامه .

ـ ايها الرجل الطيب انك تكاد تسقط من فرط التعب والنعاس .. والنوم يغلب عليك وانت واقف اذهب ونم .

ودخل في هذه اللحظة فلاح عجوز وقال :

ـ وجدت هذا الكلب وهو يلعب مع آخر في الفناء ـ وهذا هو السبب في انه لم يستمر في نباحه عندما دخل الاثنان القصر .

ووضع على الارض ماهو اشبه بكرة من الفراء ، وكان يمسك به من عنقه ، واخذ « كنج تشارلز » يدور في الغرفة وهو ينبح ، ولكزه الدوق بخفة .

ـ أصمت .. انك ستوقظ سيدتك !

ثم استدار الى السائق :

ـ سر مع حارسي .. وسيذهب بك الى حيث تنام .

وقام السائق من مقعده بصعوبة وكل مفاصله تؤلمه ووضع يده على فمه وتثاءب وتبع الفلاح . وبقى الدوق وحيدا فأخذ يراقب الدوقة وقد انبسطت اسارير وجهها الجميل وهي تستمتع بلذة النوم .

ـ انها لفاتنة .. هذه .. هذه الدوقة .

ونظر الى سترته البالية وسراويله المهلهلة وحذائه القديم الذي ادمته الاشواك والاعشاب وتمتم يقول :

ـ انا ، اني امثل كل ما يمكن ان يتصوره الانسان ، نعم .. قد اكون اي شيء .. الا ان اكون ممثلا لاسرة بوربون داميكور ..

ودخلت الفلاحة العجوز قائلة :

ـ وضعت غطاءين نظيفين على الفراش .. يجب الان ان نوقظها .

ومال الدوق على اذنيها ولمس يدها .

ـ ياسيدتي .. ! يا آنسة هل انت نائمة
وحركت الفتاة رأسها وغمغمت وهي حالمة :
ـ سعيدة .. سعيدة جداً .

واتسعت حدقتا الدوق وعاد الى مناداة زائرته ، وضاق بمحاولاته فرفع جسم الفتاة بعد تردد قصير وأسندها الى صدره ، وخرج بها من الغرفة في خطوات خفيفة ثابتة خلف مرجريت التي مشت أمامه وهي تحمل المصباح .

وصعد الدوق بحمله درجا قديما من خشب الزان . في نهاية البهو ، ودفع أحد الابواب بقدمه ودخل وانحنى ووضع حمله في هدوء على الفراش

ـ اخلعي عنها ثيابها يامرجريت .. وستجدينني في الطابق الاسفل .

وخرج على أسف منه . وهو يلتفت خلفه مرارا ، والقى بتحية ودية عند الباب واختفى .

ووجدت الخادمة العجوز عند عودتها بعد لحظات سيدها الشاب في الصالون العتيق مستلقيا على المقعد الذي كانت أديث راقدة عليه منذ لحظات وقد سحبه الى جانب المدفأة ومد ساقيه على مقعد آخر وهو يدخن غليونه وينفث الدخان الذي يتبدد في أركان الصالون الكبير المظلم .

وغلب النعاس الكلب «كنج تشارلز» فرقد في أحد الاركان ، وأخذت النار تخمد شيئا فشيئا ، ونام الدوق وكانت انفاسه هي الشيء الوحيد الذي يعكر صفو السكون في القصر .

الفصل السادس

أخذ جو الصالون الداخلي يبرد تدريجيا ، ونفذ نسيم الصباح المنعش من شقوق النوافذ الى داخله فأفاق الدوق من نومه ، وأخذ يتمطى وفرك عينيه والتقط غليونه الذي سقط على الارض ، ثم مر بيده على جبهته وحاول جمع أفكاره المشتتة :

ـ ترى .. ما الذي حدث ؟ ..

ووقع بصره على الكلب «كنج تشارلز» وهو نائم تحت منضدة في وسط الغرفة وتذكر ما حدث .

ـ آه .. نعم .. المسافرة .. أعرف الآن ..

وانتصب واقفا وتمطى ثانية وفرك عينيه ، واتجه نحو النافذة وفتحها .. كان ستار خفيف من الضباب يخيم على الحديقة المهملة ، وكانت الطرق فيها تغطيها الاعشاب ولا يكاد المرء يتميزها .

وأغلق الدوق الشاب النافذة ثانية بعد أن لمح شعاعا ضئيلا من الشمس نفذ الى الارض تحت الاشجار .

وفتح الباب المؤدي الى الرواق واتجه نحو الدرج ، ولكنه توقف عند أول درجة ، وقد تذكر أن غرفته مشغولة واستدار الى باب آخر دفعه فانفتح محدثا صريرا مزعجا ، وخرج منه الى فناء خاص غطته الاعشاب التي نمت بين بلاطه المشقق . وبه بئر مسورة في وسطه ، واتجه الدوق نحوها والقى فيها بدلو مربوط بسلسلة وسحبه وقد امتلأ بالماء ، ثم نزع سترته ورفع اكمام

قميصه وبدأ يغتسل في هدوء ، ولما انتهى مر بأصابعه في شعره مستعيضا بذلك عن تمشيطه ، وارتدى سترته واتجه وهو يصفر نحو مبنى آخر وفتح بابه ودخل مطبخا نظيفا منظما كانت به الخادمة العجوز تدير طاحونة للبن ، وما أن رأت سيدها حتى قالت : —

— آه .. انها حقا عجيبة .. أقصد السيدة الضيفة .. فهي لم تناد مرة أو مرتين لتطلبني .. بل أخذت تدق الجرس الموضوع على المائدة الى جانب فراشك والذي كان يستعمل فيما مضى للدعوة الى طعام الغداء .. وهو يزن قرابة عشرة كيلو جرامات .. وقد جريت مسرعة وأنا أظن أن هناك حريقا شب ، وأمرتني .

وقاطعها الدوق — ما الذي ستعدينه لطعام الغداء ؟ وأريد وجه المرأة .

— باق لدينا قطعة من دهن الخنزير وبعض البطاطس

— أهذا كل ما عندنا ؟

— وما الذي تريد .. ؟ لقد أعطيتني مائة فرنك منذ خمسة عشر يوما .. ولا يمكن أن أعمل الكثير بمثل هذا المبلغ .

وعض الدوق على شفتيه وقطب حاجبيه ، وسارعت المرأة الى القول :

— آه ياسيدي شارلو .. يجب الا تهتم او تتألم من أجلنا .. لم اقل هذا لاضايقك .. وانت تعلم ذلك تماما .. وفضلا عن ذلك فما الذي جاءت تفعله هذه السيدة عندنا .. ؟

وابعدها الدوق بيده من أمامه .

— لا تقلقي يا مرجريت .. سأقوم بدورة في الحديقة ، وسأعود اليك بأرنب أو طائر على الأقل لتعديه للغداء .

واتجه الى مشجب في نهاية المطبخ معلقا عليه عدد من بنادق الصيد ، واختار احداها واخذ معه كمية من الخرطوش من أحد الادراج وحشا بندقيته .

— أعطني بعض الثوم وقطعة من الخبز واحتفظي بالقهوة للسيدة .

وتناولت الخادمة العجوز عددا من فصوص الثوم من صوان ، وراحت تنظفها قبل أن تعطيها للدوق الذي حمل بندقيته على كتفه وخرج وهو يقضم كسرة الخبز بأسنانه القوية ولما أراد التهام أحد فصوص الثوم تردد وتوقف ثم رماه بعيدا :

— آه .. كلا .. سأضايقها .. وهذا لا يجوز .

وأفاقت اديث في هذه الاثناء وقامت تؤدي تمريناتها الرياضية اليومية ، ودقت الخادمة العجوز على بابها .

— سيدتي .. سيدتي .. ان قس لوركان هنا ويطلب مقابلتك ..

— أهو كذلك .. سآتي ..

وتناولت من حقيبتها غلالة من الموسلين الرفيع التفت بها .. وكانت هذه هي ثوب الصباح الذي اعتاد الامريكيون ارتداءه ، وانطلقت تهبط الدرج وعبرت الرواق مسرعة ووقفت على عتبة الصالون ، ورأت شبحا أسود يقف فيه لاستقبالها .

— آه .. ! أهو انت السيد القس الذي قابلته مساء أمس .. ؟ حقا انني لسعيدة .. !

ونظر اليها الاب دونا في فزع وهي في هذا الثوب الذي لم يتعود رؤية مثله ، وأشارت اديث الى مقعد ، وجلست هي الاخرى واضعة ساقا على ساق وتناولت سيجارة من علبتها .

— الا تدخن ؟

ــ كلا .. كلا .. اشكرك . لقد حضرت مع اللبان في عربته ، واردت أن اكون أول من يهنئك ويتمنى لك اقامة سعيدة .. وقد طلبت مقابلة الدوق ، ولكن قيل لي انه غير موجود .

ــ اعلم ذلك ·· هذا لا يهم ··

ودهش القس جدا لقولها وبدأ يخلع قفازيه المصنوعين من نسيج أسود في بطء ثم تشابكت يداه على ثوبه الناعم الجديد الذي يحتفظ به لايام الاحاد ، والذي ارتداه لهذه المناسبة . واخفى حذائيه المتسخين تحت مقعده .

ــ انك متسامحة يا سيدتي الدوقة ·· وهذه صفة جميلة ·· لا يجب الغضب من شارلو المسكين ·· اريد أن اقول عن سيدي الدوق .. كان تلميذي فيما مضى .. الم يتحدث اليك ابدا عني ··؟

ــ كلا ·· لا اعتقد ذلك ·· فاننا لم نتقابل كثيرا حتى الان ·· حدث ذلك امس فقط ولفترة قصيرة ·

ــ ارجو عفوا ياسيدتي الدوقة .. أفهم جيدا أن .. أن ·· أميكور يعجبك ؟ ألا يروقك القصر ؟

ــ واظهرت ابتسامة شيئا من الامتعاض ونظرت الى الجدران :

ــ لا استطيع أن ابدى لك رأيي تماما · انه قديم بعض الشيء .. اتفهمني .. ؟ قديم بعض الشيء وغير مريح .. ان لدينا في امريكا الكهرباء وغرف الاستحمام منتشرة في كل مكان ·· وكذلك اشياء اخرى مريحة · كالاجراس ··

وجملة القول كل ما يكفل الراحة ··

ــ آه ·· ! ان السيد شارل رجل زاهد قنوع ·

ــ ماذا تقول ؟

ــ أقول انه رجل زاهد قنوع ·· وعاقل ·· هو يحب

الصيد ·· وسيان عنده كل شيء

ــ نعم انه لكذلك ، ولكني لست مثله ·· سيتم تغيير كل هذا ·· وهل البلاد كذلك زاهدة قانعة كما تقول يا سيادة الاب ؟ لا كهرباء ، ولا حمامات ، ولا اجراس ! حقا يجب تغيير ذلك ·· انتظر لحظة ·· لدي فكرة ··

وهبت من مقعدها في خفة ونشاط واختفت وأطراف ثوبها تتطاير خلفها ، وعادت بعد فترة قصيرة ممسكة بورقة زرقاء في كل من يديها · وقدمتهما للقس الذي فزع ·

ــ انا آسفة يا سيدي ، ليس هذا بكاف ·· خذه لفقرائك المساكين ·

ــ ولكن ·· لكن هذا كثير يا سيدتي الدوقة ·· أنا ·· أنا ··

ــ انك تسخر مني ، ولكنني سافعل أكثر من ذلك ·· لقد سافرت امس مسرعة ولم اكن احمل نقودا كافية ·· وفي انتظار المزيد ..

ووضع الاب دونا الالفي فرنك في حافظته بعناية ، وتناول تبغه وقفازيه وهو يرتجف .

ــ لست اريد اضاعة المزيد من وقتك يا سيدتي الدوقة ·· ان هذا الاحسان والتبرع ··

ــ ماذا تقول : « احسان » ·· ! آه كلا : ان هذا ليس احسانا ، انه لشيء قليل جدا في انتظار الغد ·· آمل أن أعطيك هذا الاسبوع عشرة آلاف فرنك اذا انت اردت أو اكثر ·· انى استطيع هذا ··

ــ ارجو أن تعتقدي يا سيدتي الدوقة أني مهما كان الامر شاكر جدا لنبل مشاعرك ، وارجو مرة اخرى أن تتسامحي مع عزيزنا شارل ·· انه عنيد ولكن له قلب من ذهب · وأؤكد لك انه نوع نادر من الرجال ، وهو يحبك

كثيرا . وانحنى الاب دونا لها عند الباب وخرج ، وسمع وهو فى الطريق دوى طلقتين الى يساره . وأرهف سمعه ، ورأى الدوق يتقدم بخطى بسرعة وقد علق على كتفه زوجا من الطيور ، ورفع القس ذراعيه :

— ها أنت أخيرا ، أنت ..

وصوب الدوق اليه نظراته وتقدم نحوه مادا يده .

— نعم هاأنذا .. تصور اننى اطلقت النار على أرنب ، ولكن يبدو أن يدى اهتزت وأنا افكر فى شىء اخر فأخطأته .. ولكننا لحسن الحظ لن نعدم الحساء واللحم المحمر .. !

وتأبط الاب دونا ذراعه :

— أهى مسألة أرنب وحساء ولحم محمر .. ما الذى تفعله هنا فى هذا الصباح ايها الشقى ؟

— كيف ، أتسأل ماذا أفعل ؟ . حسنا ، وأنت ؟ لم ارك ابدا فى مثل هذه الاناقة . ! ثوب مهفهف جميل ، وحزام جديد ، وحذاء وجيه ، وقفاز نظيف .. أتعتزم حضور حفل زواج أو الاشتراك فى جنازة .. ؟ أم لعل هذه هى فترة جمع التبرعات للكنيسة والمساكين .. ؟

وارتسمت على وجهه علامات الكآبة واستطرد :

— يا صديقى المسكين ، لم أكن فى وقت من الاوقات مفلسا الى هذا الحد .

وتوقف القس عن الحديث ونظر الى تلميذه القديم :

— قل لى .. أتسخر منى ؟ أتسألنى من اين جئت ؟ أتتصور أننى آتى الى القصر فى حذاء تغطى نعله المسامير ؟

— عجبا ، ألم يحدث ذلك من قبل .. ؟

— حسنا ، وأنت ما الذى تفعله فى مثل هذه الثياب ؟ بينما تنتظرك السيدة فى القصر وتعانى من الوحدة والملل

وأنت تلهو وتلعب .

— أية سيدة ؟ آه نعم .. السيدة الشابة .. الانجليزية .. أتعرفها .. ؟

— عجبا ! كيف لا أعرفها ؟ .. ولكن ما قولك أنت ؟

وهز الدوق كتفيه وشد حمالة البندقية :

— آه ، أنا ! رأيتها مساء أمس .. والحق انه لم يكن لدى الوقت الكافى للتشرف بمعرفتها .

واستطرد القس حديثه متحمسا :

— ان فتاتك ساحرة .. لطيفة جدا وكريمة .. انى اهنئك يا شارل .

— ولكن ؟ ما دخلى أنا فى كل هذا ؟

— حسنا .. ولكن كان عليك رغم كل هذا ان تطلعنى على الامر من قبل .

— أطلعك على ماذا ؟

— افهم .. ان المرء لا يترك أصدقاءه القدامى ليطلعوا على مثل هذا الخبر الهام من الجرائد .

وسمعت من بعيد ساعة الكنيسة وهى تدق عشر دقات ، وانتصب الاب دونا مذعورا .

— يا للداهية .. ! الساعة العاشرة .. ؟ لن أصل أبدا الى الكنيسة فى الوقت المناسب لالقاء العظة . سأتركك الآن ، وستعطى دراجتى فى المرة المقبلة .

الى اللقاء يا شارل .

— الى اللقاء يا أبى .

— وكن لطيفا معها .. انها تستحق منك كل اكرام .

— نعم .. نعم ..

ووقف الدوق لحظة جامدا وسط الطريق وهو ينظر الى القس المسرع وهو يبتعد ، ثم استدار وتمتم قائلا :

– لم أفهم شيئا على الاطلاق من كل ما حدثتني به ‥ ما الذي يقصده ‥ ؟

وانطلق يقطع الطريق بخطى سريعة ، وهو يصفر نغما للسيد ، ووصل الى القصر بعد ربع الساعة ، ودخل المطبخ فوجد الخادمة تحشو الفرن بالخشب وتوقده ٠

– اين بيبرو ‥ ؟ بيبرو ! تعال ‥ خذ الطير وانزع ريشه ونظفه ‥ اين هو ؛ هذا الحيوان ‥ ؟

هذا الحيوان ‥ ؟

وهزت الخادمة العجوز كتفيها ٠

– بيبرو ‥ ؟ آه ‥ ! انه هناك ‥ هناك بعيدا ‥ لقد أرسلته السيدة الى القرية ٠

– الى القرية ‥ ؟ لماذا ؟ كيف ‥ ؟ ما معنى هذا التصرف ‥ ؟

– نعم ‥ وكلفته بقضاء بعض المهام ‥ أربع عشرة برقية ‥ ! أسامع انت يا سيدي شارل ‥ وخطابات ونقود ٠ لقد أعطت الاب دونا ألفي فرنك ‥ رأيت ذلك بعيني ‥ !

ووضعت الخادمة قليلا من الزبد في اناء ، وقطعت بصلة أضافتها اليه ، وواصلت الحديث وهي تعمل :

– وفضلا عن ذلك لو انك رأيتها ‥ ! انها ترتدي سروالا مثلك ‥ ! وتتنزه به ‥ !

وطلبت بعد ذلك مشاهدة القصر ، ثم مضت تقول : « سنضع مرايا في القاعة الكبرى ، وبساطا على السلم ، ‥ وسألت كذلك عما اذا كان يوجد تليفون ‥ وجراج للسيارات وطلبت تعميم الكهرباء في القصر كله ‥ واستبدال الاثاث ‥ وقالت انها ستأتي بطاه آخر واني سأخلد الى الراحة ، وسأعامل كسيدة ‥

وضرب الدوق الارض بكعب بندقيته وصاح مزمجرا :

– وبعد ‥ انها تضايقني ، هذه السيدة التي تتنزه في قصري مرتدية سروالا ولا يروقها فيه شيء ، والتي تبعث بحارسي الى القرية وكأنه يعمل في خدمتها ٠

ونظرت اليه الخادمة في دهشة وبلاهة ، واستأنف الدوق حديثه :

– نعم ٠ ان الامر لكذلك ٠ ! من رجاها ان تقدم للاب دونا اعانة للفقراء وهي في بيتي ٠ ؟ ولن تغير فيه الاوضاع ٠ ؟ ومن الذي قال لها أن تأتي في الساعة الحادية عشرة مساء لتنام بين ذراعي و٠ و‥ كلا ، لم اقل شيئا ‥ !

– وابتسمت مرجريت ، وادار الدوق رأسه ، وسحب مقعدا جلس عليه واخذ في تنظيف اجنحة الطير من الريش الذي كان ينثره حوله في شيء من الغضب ٠ ووقف فجاة واندفع خارجا تاركا الطير ولم ينزع سوى نصف ريشه ٠ وهزت مرجريت رأسها :

– هذا شيء يلهب الدماء ‥ وبشارة طيبة ‥ !

وعاد بيبرو اخيرا واتجه الدوق نحوه ووقف أمامه :

– اسمعني جيدا يا بيرو ‥ ! اني امنعك ‥ أفاهم انت ‥ ؟ امنعك من اطاعة هذه السيدة دون أن تستأذنني في ذلك ‥ انك لست خادما ، بل انت صديق ٠

وحك الحارس العجوز اذنه ٠

– لقد فكرت في الامر يا سيد شارل ، ولكنها منحتني عشرين فرنكا ٠

– وطبعا هذا سبب ‥ لست اقول انه معقول ، ولكنه سبب وادار الدوق ظهره للحارس واستمر يتجول في الفناء وهو في اشد حالات الغضب ٠ وعندما قابل الحارس زوجته في المطبخ تبادل الاثنان النظرات وابتسما واخذا في اعداد المائدة في غرفة صغيرة الى جانب

المطبخ ، ودخل الدوق على اثر ذلك .
— لماذا لا ناكل سويا كالعادة ؟
ونظر بييرو اليه فى فزع :
— والسيدة ؟ .
— هذا صحيح .. ولحسن الحظ لن تستمر هذه الحال طويلا .
واقترب من النافذة بينما كان بييرو ينهى اعداد المائدة وأخذ ينقر على الزجاج نغم نشيد موسيقى ، واهتز فجاة عندما سمع صوتا مرحا يناديه :
— اراك قد عدت .. صباح الخير يا دوق ..
واستدار الدوق فى بطء ، وكانت اديث قد دخلت لتوها فى ثياب السفر وعلت وجهها الصبوح ابتسامة ودية ، وذهل شارل لهذه الابتسامة وهذا السحر الذى ينبعث من هذه السيدة الشابة ، فلم يعرف فى بداية الامر كيف يجيب ، ومد يده فى تردد وهو يبحث عن عذر للهرب ، بعد أن استولى عليه الخجل وزال غضبه فجاة . وكان بييرو قد اختفى واغلق الباب وراءه ، واقتربت اديث من الدوق واحنت جبهتها وكأنها تنتظر منه أن يقبلها ، واستمر شارل مادا يده وهو لا يفهم مرادها . وغشيت نظرات اديث سحابة من الكآبة ولكنها أمسكت بالاصابع الممدودة اليها .
— ان الطقس جميل اليوم .. اليس كذلك يا سيدتى .. ؟
— نعم .. والحق أننى سعيدة بذلك منذ وطئت قدمى أرض فرنسا .. ان بلادك ساحرة .. متشددة فى تقاليدها ولكنها ساحرة .
ونظرت اليه من قمة رأسه الى اخمص قدميه .
— ان ثيابك تتمشى تماما مع القصر القديم .. وانه لمن

المؤسف انه يجب تغيير كل شيء فيه .. كى يصبح مريحا .
— انه يرضينى هكذا بمفردى ، وسيبقى كذلك طالما بقيت .
— بكل تأكيد .. انى افهم ذلك ، ولكنه لا يرضينا نحن الاثنين .
— لست افهمك تماما يا سيدتى ، عمن تريدين التحدث ؟
واشارت اديث باصبعها :
— عنك وعنى يا دوق .. اننا اثنان على ما اعتقد ؟
— هذا صحيح يا سيدتى .. ولكن صدقينى .. انا آسف جدا .. انك لا تنوين مد اقامتك هنا الى أجل غير محدود ؟ ..
— اقامتى .. ؟ ولكن هذه ليست اقامة .. ! نحن هنا فى بيتنا .. لان .. اليس كذلك .. ! هذا هو قصر داميكور ؟
— بكل تأكيد ، ولكن .
— آه ! لانى .. انا الدوقة داميكور ، زوجتك .. .!
ومر شارل بيده على عينيه ، وقال فى صوت مقتضب :
— اسمعى يا سيدتى ، لست سوى شاب طيب على شيء من البساطة ولكننى لست عصريا .. واذا كان هذا نوعا من المزاح ، فانه ليس مستساغا ولا ينطوى على شيء من كرم الاخلاق واللياقة .
ونظرت اليه اديث وقد وقفا وجها لوجه .
— ليس هذا مزاحا .. انى زوجتك ، والا فما عليك الا أن تثبت غير ذلك .
وتذكر الدوق فجاة سيلا من الاحداث والتفاصيل . والوصول امس ، واقوال سائق السيارة ، وغمزات الاب

دونا المبهمة فى الصباح ٠ وقال فى صوت جلى قاطع :

ـ اذا كان هذا ليس مزاحا فهو فخ نصب لى ٠٠ ولست اريد الوقوع فيه ، او توضيحه ارجو أن تتفضلى يا سيدتى بايضاح الامر لى .

وتناولت اديث من جيبها فى بطء كراسة رمادية صغيرة ومستندا مختوما وفتحتهما .

ـ تفضل بقراءتهما ٠٠ هاك وثيقة الزواج وما تسمونه بالبطاقة العائلية ٠٠ انا اديث سومفورد من شيكاغو وانت الدوق دى بوربون داميكور ٠٠ وعلى ذلك فانت زوجى ٠٠

وانحنى الدوق رأسه ونظر الى الامضاءات واصفر وجهه وهو يعيد الكراسة :

ـ أؤكد لك يا سيدتى ، انك خدعت ٠٠ هذا ليس توقيعى ، لم اعط ابدا توكيلا لاى احد كى ينوب عنى ٠ انك ستظلين الآنسة اديث سومفورد ، وانا اعزب وسأستمر كذلك ٠٠ !

لمع وميض غامض فى عينى اديث ، وقالت فى صوت حلو خافت :

ـ قد يكون الامر كذلك يا دوق ٠٠ ولكن يجب اثبات ذلك ، وطالما ان هذا لم يثبت فانك ستظل زوجى ٠

وضرب الدوق بيده على صدره :

ـ انك تعلمين تماما يا سيدتى اننى لست الشخص الذى تزوجك امس ٠٠ ان الامانة تفرض عليك الاعتراف بذلك ٠

ـ هذا ممكن ٠٠ ولكنه غير مؤكد ٠٠ وكل ما اعرفه ، هو اننى اجد نفسى امام رجل مهذب يعجبنى ، فهو شاب وسيم نبيل ، والطف من قابلت فى حياتى وببركة الرب لن اعود الى امريكا الا معه .

ـ ولكنك لن تستطيعى ياسيدتى اجبارى على ان اكون

زوجك ٠٠ ان الطلاق مباح فى فرنسا ٠

ونظرت اليه اديث فى الم ٠٠ وخيم الحزن على وجهها الجميل ٠

ـ ما الذى يدعوك الى كراهيتى ٠٠ ؟ اترانى قبيحة؟ الن تتعود ابدا على مصاحبتى ٠٠ انا التى تعرفك منذ امد طويل ٠٠ منذ مساء امس عندما رفعتنى بين ساعديك القويتين لتذهب بى الى حجرتك ٠٠ لم اكن نائمة تماما ! انك قوى يا دوق ٠٠ ونحن فى امريكا نحب الاقوياء ٠

وتجنب الدوق الاجابة وتظاهر بفحص الاوراق بعناية ، واشار اخيرا الى وثيقة الزواج :

ـ اتسمحين لى ياسيدتى بالاحتفاظ بهذه الوثيقة ، وانا اعدك بشرف بان استوضح هذه المسألة حتى المساء ، واتيك بالجواب الذى يرد الى كل منا حريته التى هى غالية عندى انا على الاقل ٠

ـ كما تريد وتفضل ، ولكنك لن تثبت شيئا ٠ وانا زوجتك ٠

ـ آه ارجوك ٠ انا لا اعرف ٠ انى لم ارك ابدا الا سواد ليلة واحدة وانت تتظاهرين بالتعب ، انك دخلت بيتى على امل الاستقرار فيه ، وهذا مالا اتحمله ٠٠

وفتح الباب المؤدى الى الرواق وخرج بعد ان نظر الى الابتسامة الغامضة فى غضب ، ولكن الابتسامة غاضت من وجه اديث عند سماعها الباب وهو يغلق ، وانتابتها رجفة هزت كل جسمها ٠

ـ أواه يا الهى ٠٠ ! لم كل هذه الضراوة ؟

واندفع الدوق داخلا المطبخ كالعاصفة :

ـ اين بييرو ؟

ودخل الحارس العجوز وهو يربط مئزرا نظيفا حول وسطه ، وزمجر الدوق :

ــ اخلع هذا ، واذهب واعد الفرس والعربة لى ، انى خارج ٠

ــ دون ان تاكل ؟ ولكن يا سيدى شارل ٠٠

ــ اعمل بما آمرك به ، او اذهب انا واعدها بنفسى ٠

وخرج الحارس العجوز ، وانتظر الدوق حتى تم اعداد كل شىء ، وقفز فى العربة والهب ظهر الفرس بالسوط وانطلق كالسهم مغادرا القصر ٠

وعندما عاد بييرو الى المطبخ وجد اديث جالسة وهى غارقة فى افكارها ، بينما كانت مرجريت تحاول التهوين عليها وتهدئتها ٠

ــ يا الهى ! لا تحزنى ٠٠ انه عنيد ولكنه فتى طيب ــ سوف يعود ٠٠ هيا الى المائدة ٠٠

ــ افضل ان اتناول الطعام معكما ٠ ارجوكما ٠٠ ان الخوف والضيق سيستوليان على اذا تركتمانى وحدى ٠

وفتحت اديث الصوان فى خفة وبساطة ، وتناولت طبقا وكوبا وجلست الى المائدة الخشبية بين العجوزين ، وقال بييرو ليسرها ويهون عليها :

ــ اعدى لنا احدى فطائرك اللذيذة يا مرجريت ٠٠ ان السيدة ستعجب بها ٠٠ ان مقاطعتنا تشتهر بهذا النوع من الفطائر ٠٠ راقبيها واحفظى طريقة صنعها ٠٠ وقد تفيدك معرفة اعداد الطعام اذا تزوجت يوما ما ٠٠

ــ آه ، اننى متزوجة ٠٠ ولكن زوجى هو الذى لم يتزوج ٠٠ !

الفصل السابع

توقفت العربة بعد ساعة امام منزل قس لوركان ، وقفز الدوق منها وعبر الحديقة الصغيرة ونفذ الى الرواق محدثا ضجة مزعجة ظهرت على أثرها مارى ليس وهى مذعورة ٠

ــ يا الهى ٠٠ اهذا انت يا سيد شارل ٠٠ ماذا تريد ؟

ــ الاب دونا ٠٠ اين هو ؟

ــ انه هنا .. يتناول طعام الغداء .. وقد عاد لتوه ٠٠

وظهر الاب دونا وقد ربط حول عنقه فوطة المائدة وهو منزعج للضجة الغامضة التى سمعها ، وصاح وفمه لا يزال مليئا بالطعام ٠

ــ آه ، اهذا انت ؟ عجبا يا ولدى ٠٠ ! عندما تكون وحيدا فى القصر لا تستطيع قوة اخراجك منه ، والان ولك رفيقة فيه ، فانك لا تبقى ابدا معها ٠

وقطب شارل حاجبيه واجاب :

ــ ولكننى جئت الان بسببها هى بالذات ٠٠ انها تزعجنى ، فتاتك الامريكية هذه ٠٠ انها تثير اعصابى ٠٠ !

ــ كفى سبابا يا صاحبى ، ولا تتحدث عن السيدة الدوقة بمثل هذه اللهجة الخشنة التى تدينك اذا سمعها احد غيرى ٠

ــ ولكن ماذا تقول يا ابى ٠٠ لا توجد اطلاقا اية سيدة

دوقة .. انى اقسم لك على ذلك .. انني الضوبة بين براثن كابوس مخيف ..

وامسك الاب بذراع شارل فى حنان ابوى وقاده الى غرفة المائدة :

– اجلس يا صغيرى وفكر .. انك تجيد القراءة .. الق نظرة على هذه الجريدة .

وسحب صحيفة من كومة الجرائد التى صدرت فى اليوم السابق ، واشار باصبعه الى السطور التى قراها مساء امس واثارت مشاعره .

– وما قولك الان ؟

– اقسم لك انى لم أتزوج ابدا من اية امريكية ... انى اسمع هذا الاسم لاول مرة .. ومع كل فان ما قراته لا يدهشنى .. اذ هاك وثيقة الزواج التى سمحت لى تلك السيدة بالاحتفاظ بها كى أستوضح المسالة .

واخرج من جيب سترته الوثيقة وناولها للقس .

– انها صالحة تمام الصلاحية ، وانا اميز امضاءك .

– انها امضاء مزورة .. ارجوك يا ابى ، صدقنى .. انى لم أتزوج ابدا هذه الفتاة التى لا أعرفها .. لست اريدها .. ولتذهب بعيدا عنى .. انى لا احبها .. كلا .. على كل حال .. لا احبها ..

– حسنا ، ولكنك ستتعلم أن تحبها ، انها شابة جميلة ثرية ، وانت تعجبها .. انك تقول انك فريسة لخدعة .. حاول اذن أن تسخر ممن سخر منك .. انها كريمة ! لقد اعطتنى الفى فرنك للفقراء المساكين .. فما الذى تطلبه اكثر من ذلك ..؟

– ولكن يا ابى ان احدا لا يستطيع اجبار الناس ..

– كلا ، هذا صحيح .. ولكن الاذكياء مثلك لا يرفضون ما اعطته لهم العناية الالهية .

– ساطلب الطلاق ..

وهب الاب دونا واقفا :

– ستطلب الطلاق ..؟ اعد على مسامعى انك تعتزم الطلاق ..

– نعم ساطلب الطلاق ، ولست انت الذى سيمنعنى عن ذلك .

واجاب الاب دونا فى هدوء :

– اذا كنت تتكلم هكذا عن الطلاق ، فمعنى ذلك انك متزوج .. فما الذى كنت تهذى به امامى حتى الان ؟ ان الانسان لا يطلق اذا كان غير متزوج .. !

وضرب الدوق بيده بقوة على المائدة ، وقد افحمه هذا الجواب المنطقى ولم يستطع ان يجد ردا .. وارتاح الاب دونا لانتصاره :

– ان المسالة لا تستحق منك هذا الغضب يا شارل .. انك تعلم تماما انى محق فيما اقول .

ولكن الدوق جرى الى الباب بدلا من أن يجيب وفتحه وخرج ، وعنت للاب دونا فكرة طارئة فجرى خلفه ، ولكن الدوق كان قد وثب الى عربته وابتعد بها ، وعاد القس الى بيته وهو يغمغم :

– اذهب يا شارل وانفث غضبك .. ان الهواء سيفيدك .

واكمل غداءه فى هدوء وهو يبتسم .

كان الدوق اثناء ذلك منطلقا بعربته فى الطريق الذى يصل بين لوركان ومونفور مان — شالوس ، وهناك ترك العربة فى فندق ، وركب القطار الى «داكس» ولم تمض ساعة حتى كان يدخل مكتب الاستاذ روميجو ، مسجل العقود ، وهو رجل عجوز اصلع تدل سيماؤه على المرح ، وقد استقبل عميله بترحاب بالغ .

— ما الذي يشرفني بزيارتك يا سيدي الدوق ؟ دعني اولا اهنئك بـــ ..

— وانت ايضا ٠٠ ؟ هل تواطأ تم كلكم ضدي ٠٠ ؟

وعقدت الدهشة لسان مسجل العقود ٠ وتمتم قائلا :

— هل انا مخطيء ..؟ انت والسيدة الدوقة ؟

واستند الدوق بيديه على المكتب الحافل بـالملفات والمستندات ومال نحو محدثه :

— اصغ الي يا استاذ روميجو .. ما كل هـــذه المهزلة ؟ ٠٠

— ولكن الامر في غاية البساطة ٠٠ الم يصلك خطابي الاخير ٠٠ ؟

— خطاب ؟ آه نعم ٠٠ اذكر لي شيء من الغموض خطابا منك لم افهم منه شيئا ولم اقراه قبل أن ٠٠

وفرك المسجل يديه في بطء ، واستدار وسحب ورقة من احد الادراج وضعها امام الدوق :

— كانت غلطتك يا سيدي الدوق انك لم تقرا هذا الخطاب وهاك نسخة منه . كتبت اليك ان جميع مستندات رهوناتك بدون استثناء قد اشتراها شخص غريب في باريس لم أعرف اسمه الا في هذه الايام الاخيرة ٠٠ لقد اشترى بعض مستندات الرهن هذه سيد يدعى كريبان من تجار عديدين في مقاطعتنا لحساب شخص يدعى سومفورد ، فما كان علي الا ان اسجل شراء هذه المستندات باسمه .

وقد اخبرتني انت نفسك في خطاب كتبته لي بان هـــذا الامريكي الثري سومفورد يريد أن يتولى مصــالحك ومعالجة امورك في المستقبل ٠

— سومفورد ٠٠ اي سومفورد ؟

— ولكن عفوا يا سيدي الدوق ، من يراد خداعه هنا ؟

ان سومفورد على ما اعلم هو والد زوجتك ٠

— لست اعرف من المخدوع هنا ، يا استاذ روميجو ، ربما انت ؟ واما انا ، فبكل تأكيد ٠٠

وعلت وجه المسجل ابتسامة خفيفة :

— فكر قليلا يا سيدي الدوق ٠٠ انا لم اخدع بالتأكيد لاني اعلنت بان مبلغ مليون وستمائة الف فرنك دفعت للمدعو كريبان ، وعليه فاني جمعت كل مستندات الرهن المتبقية لدي وارسلتها الى وكيل السيد سومفورد في باريس ٠ واعلنتك بعدها بتسوية المسألة في الخطاب الذي دلت لي انه وصلك ولكنك لم تقراه ..

— ولكنني لم اكتب اليك ابدا ٠٠

— آسف لابد ٠٠ انك نسيت ٠٠ الزواج ومباهجه ومشاغله .. أفهم ذلك واقـدر الظروف .. كنت انا الآخر شابا .. ومع كل ، هاك خطابك .

واخرج المسجل ورقة من احد ادراجه وقدمهـــا الى الدوق الذي تناولها وفحصها وصاح :

— انها مزورة ، تماما مثل هذه ٠٠ واطلع المسجل على وثيقة الزواج ٠

— انظر الى هذه ٠٠ انى لم اكتب ابدا ٠٠ افاهم انت .. ؟ ولم اتزوج ابنة من يدعى سومفورد .. انظر الى هذه الامضاء وقارن بينها وبين امضاءاتي لديك سترى الفارق ٠٠

— وعدل المسجل عويناته وثبتها فوق عينيه ، واخذ يفحص الامضاءين بعناية ويقارنهما بما عنده من امضاءات وانتهى بقوله :

— اصغ الي يا سيدي الدوق ، هذه مسألة بالغة الخطورة ٠٠ ويحتمل الا تكون هذه الامضاء امضاءك ٠٠

والواقع ان هناك فارقا بسيطا .. ولكن المؤكد الثابت هو شراء مستندات الرهن على املاكك ، مما يؤكد حق سومفورد الصريح في قصرك وملكيته له ، فالقانون يبيح للدائنين بيعه له .. وقد اعتقدت ان هذا الامريكي اعاده اليك كهدية للزواج .

ـ اسمح لى بشرفي يا استاذ انى لم اتزوج ابدا من هذه الانسة سومفورد ، لقد هبطت على امس في اميكور واستقرت فيه .

ـ وماذا تريد .. ؟ انها في بيتها .

ـ كيف في بيتها ؟ كان المتفق عليه أن يترك لى حق الانتفاع بالقصر .

ـ دعنا نتفاهم .. كان السيد والدك يأمل فيما مضى في استعادة ثروته ، ولست اقول ان دائنيه كانوا يتشددون معه ، ولكن المسألة قد انتهت واستتب الامر الآن ، واصبح القصر ملكا لسومفورد .. أو لابنته .. و ..

ـ حسنا .. افضل مغادرته على أن اطلب شيئا من هذه السيدة .. وافضل عدم العودة الى القصر ..

وترك المسجل الدوق لبضع دقائق كى ينفس عن غضبه وقال له عندما هدأ بعض الشيء :

ـ اعرنى سمعك يا سيدى الدوق .. انى واسلافى نعمل منذ ١٥٠ عاما مسجلين لاسرتك ، وعليه استمع لنصيحة مني كصديق : لا تتعجل الامور ، انت ضحية لجماعة من المحتالين استغلوا اسمك ولقبك وامضاءك .. وما الذى حدث بعد ذلك ؟ انا وأنت نجهل ذلك . ومن المؤكد أن الذين اشتروا عقود الرهن ودفعوا الثمن لم يكونوا لصوصا أو محتالين ، فان اللصوص لا يدفعون عادة ، فلم هذا الاهتمام من جانبهم بهذه المسألة . وما هو هدفهم منها ان سومفورد وهو ملياردير ، لا يحتمل

اطلاقا أن يكون شريكا لهم .. يجب اذن جلاء هذه المسألة من الغموض بقدر المستطاع .. ان اذاعة هذه القصة وانتشارها سيحرجك ويضعف مركزك وأنت مدين لذكرى اسلافك بترك أحسن وانظف سمعة لك في هذه البلاد اذا ما قررت مغادرتها .

ـ لست اقبل عبودية لم اخترها ..

ـ هذه اقوال ترد في الكتب الادبية . انك يا سيدى الدوق تخلق الاعداء حولك دون أن تحظى بصديق واحد .. السيدة الدوقة ، أو قل الانسة سومفورد أليست هي جميلة وكريمة وثرية .. ؟

ـ انها تجمع بين كل هذه الاوصاف ، ولكنني لا أريد بيع نفسي .

ـ ليست المسألة مسألة بيع نفسك ، ولكن الهدف هو عدم اظهارك بمظهر المطرود من قصره ، وسأعمل من جهتى ، اذا أردت ، على استعادتك لحريتك .. اننا نستطيع الغاء هذا الزواج من روما ، فما علينا الا التقدم بشكوى ضد التزوير واستغلاله ولكن القضية ستستغرق وقتا طويلا ، وتتكلف أموالا طائلة ، وانت لست في حالة تسمح لك بتحمل هذه المصاريف ولكن على العموم .. ثق بي وكن صبورا .. ولا تفسد علينا هذه المسألة ، عد الى القصر واخف ما في نفسك .. وهذا من صفات الملوك .. وبذلك لن تخسر نفسك .

ـ اعدك بأن اطيع تعليماتك .. ولكن هذا صعب على النفس .

ـ أهو صعب الى هذا الحد ؟ .. قليل من الشجاعة ! ..

وعاد الى المحطة محزونا ، بينما غادر الاستاذ روميجو مكتبه وهو يرفع انظاره الى السماء .

– ان هذا الشاب الذى تتهاوى الطيور الحمرة فى فمه ، يفضل عليها الغربان بلحمها الذى لا يؤكل ·· ومع كل سيسوى كل شىء فى النهاية ·

ووصل الدوق بعد أن ركب عربته من « مونتفور » الى القصر بعد ساعتين بينما كانت ساعة الكنيسة فى لوزكان تدق السادسة · واستقبله الحارس العجوز وقاد الفرس الى الاصطبل بينما انطلق هو عبر الفناء ودخل مبنى القصر الرئيسى وعند اتجاهه الى البهو القديم سمع صوتاً فتيا يناديه :

– هل أنت هنا ·· يا دوق ·· هل استمتعت بنزهة طيبة ؟

وهبطت اديث على الدرج مادة يدها ، وتقدم الدوق خطوة لاستقبالها ، ولكنه أحس بوثيقة الزواج تحت يده فأخرجها من جيبه ، واستولى عليه غضب مفاجىء سمره فى مكانه فأجاب ببرود :

– قمت برحلة طيبة جدا يا آنسة ، علمت خلالها اشياء كثيرة ، من بينها ·· انك أصبحت على ما يبدو مالكة هذا القصر ·· وانا اشكرك على الضيافة التى تتفضلين بعرضها على ، واذا سمحت فاننى سأستغل سعة هذا القصر لنتجنب التقاءنا على قدر الامكان ··

وانتظر لحظة ليرى أثر كلماته عليها ، وقد عرته الدهشة لاجترائه على النطق بها ·· ووقفت اديث امامه صامتة وقد ارخت يدها الى جانبها وهى لا تتحرك أو تنطق بحرف واحد ، وكأنها تحولت الى تمثال حجرى ·

واطلق الدوق تنهدة طويلة ولم يفهم موقفه الشخصى بالذات · وتذكر نصيحة الاستاذ رومينجو ، وتساءل عما اذا كان قد وفى بوعده بمسلكه هذا ؟ ·· ولكن الامر انتهى ولا يمكنه التراجع · وقام بانحناءة خفيفة من رأسه

وهو يضع على المائدة الوثيقة الرسمية ، اساس كل المتاعب ، أمام الفتاة وحياها فى اقتضاب :

– أتقدم اليك باحتراماتى يا آنسة ·· وأعيد اليك ما يخصك ·· فى الوقت الحاضر على الاقل ··

وعبر الرواق الى الفناء الذى قطعه للوصول الى الحديقة ·· وبدأ هناك فى السير على مهل وهو حانى راسه شابكا ذراعيه على صدره ·· ويكرر بلا وعى :

– هى ·· هى ·· ! هى ·· !

ورفع راسه فجاة بدون أن يعرف السبب ·

وتراءى له أن احدى الستائر الطويلة المسدلة على النوافذ الكبيرة فى الطابق الاول تتحرك ·· وبدا خيال خفيف فى أعماق الحجرة ، بينما توج الشفق بأضوائه النارية قمم الاشجار ، وخيم السلام والسكون حوله ، ورفع القبعة التى يلبسها وهو ينظر الى النافذة التى خيل اليه أن أحدا يتحرك خلفها ، فاهتزت الستارة ·· وجرى الدوق مبتعدا وهو يلوم نفسه على لمحة الاحترام والضعف هذه التى صدرت عنه ، ودار حول ركن القصر ·

وتقابل الخصمان على مائدة الفطور ، ولم يات الليل بجديد للدوق ، وعندما أتت مرجريت بالخبز والزبد والقهوة واللبن فى القاعة الكبرى ، كان العدوان يقفان وجها لوجه ، وكانت اديث قد تناولت وجبة العشاء مع الحارس العجوز وزوجته ، أما الدوق فقد اكتفى بكسرة من الخبز كان يقضمها فى الحديقة وهو يناجى القمر ويلتمس النصيحة لاختيار الطريق الذى يسلكه فى هذا الوضع المؤلم ·

وصعدت اديث الى غرفتها ثانية وهى متمسكة بعنادها بعد أن حاولت عبثا مقابلة الدوق ، واكتفت بكتابة بضع رسائل ، وباعجاب بيرو عندما حدثته عن التغييرات التى

تتوى اجراءهما فى القصر العتيق ، ثم اخذت قسطا من النوم تستعيد به قواها ؛ ولذلك فانها ما ان دخلت القاعة الكبرى وهى تعيد خصلة من شعرها الذهبى الى مكانها بعد أن تهدلت على جبهتها ، حتى بدت نشطة وواثقة من نفسها ؛ وكانت حقا جميلة فاتنة . ولم يرد الدوق رغم ذلك الاعتراف بسحر مخاطبته وحياهـــا باحترام يخالطه الاعتداد بالكرامة وعزة النفس،وانهمك بعدذلك فى قراءة صحيفة قديمة يرجع تاريخها الى ثمانية أيام ، متظاهرا بانه لم يفطن الى الكآبة التى بدت على وجه الفتاة وهى تتخذ مقعدها فى مواجهته ·

ولحسن الحظ دخل بيرو ليغير الموقف ؛ ووضع امام اديث كومة من الرسائل وعددا من اللفافات ، ثم سحب مظروفا أزرق من بين الرسائل وناوله للدوق :

ـ وانت يا سيدى ·· لا تتضايق ، فهاك خطاب لك ·

وأمسك الدوق بالخطاب فى غير اهتمام وفضه باصبعه ، واخذ يتلو الرسالة التى تحمل شعار النبلاء ، وهو يراقب اديث من طرف خفى وهى تفض رسالاتها وتفك رباط اللفافات بحركات نسائية لطيفة وقد ارتسمت على وجهها سمات البهجة والحبور ، وطوى رسالته فى آخر الامر ، ثم بسطها مرة ثانية واعاد قراءتها ، وتظاهر أمام زميلته بارتياحه الشديد لما جاء فيها ، وأما الفتاة فانها بعد ان فرغت من قراءة رسائلها ، نظرت اليه وهى تبتسم ، ولكنه قطع عليها حماسها وابتهاجها بكلماته القابضة ··

ـ ثقى يا آنسة ان هذه الرسالة التى تسلمتها لتوى ، هى اثمن لدى من كل الرسائل التى وصلتك الآن ·

وطوى المظروف وكوره ، والقى به فى ركن القاعة ، وأخرج غليونه من جيبه على مهل ثم اتجه نحو الباب

الصغير الذى يؤدى الى الحديقة وهو يمشى فى ثقة واعتزاز اقلقا أديث وأحزناها ، وما ان رأته يغلق الباب خلفه حتى أسرعت الى الركن والتقطت المظروف الذى القى به هناك ، واخذت بغريزتها النسائية تشتم الرائحة العطرة التى تفوح منه · ثم نظرت الى الكتابة التى اتسمت بالحروف الطويلة المدببة وعضت على شفتيها وهمست قائلة :

ـ انه لمحظوظ ·· !

وأمكنها أن تقرأ على ظهر الغلاف الكتابة التالية بالحروف الطويلة المدببة نفسها :

ـ المرسلة : الآنسة ل · دى جراس ، فى هانكس مير · آدور ـ لاند ، ·

ومرت لحظات اغمضت فيها اديث عينيها لتحول دون الدموع أن تسيل على خديها ، ولكنها وهى الجريئة غير الهيابة التى لم تتراجع فى حياتها ، ضمت قبضتيها فى عناد واصرار وتمتمت :

ـ لنعمل ما يجب عمله ·· !

واتجهت نحو الرواق معولة على الصعود الى غرفتها للتفكير فيما يجب عمله للصراع ضد هذه الجهولة التى تفوح من رسائلها رائحة عطرية ، ولكن ترامت الى سمعها فى هذه اللحظة انغام عديد من الآلات الموسيقية · واستولت الدهشة على اديث واسرعت الى النافذة ورأت الاب دونه وهو يحييها بلطف ، وقد التفت حوله فرقة الكورال بكنيسته واحتشد خلفه كل ما امكن القس الطيب جمعه من نساء واطفال من بلدة « ابرفيل » للتعبير عن عرفانهم بالجميل ·· ورفع القس ذراعه فجاء معطيا الاشارة للبدء فى العزف ، وارخى ذراعه فبدأت فرقة الكورال تساندها الموسيقى تنشد :

« سيدتنا الدوقة الطيبة ·· حلت بيننا ·· بحنانها ونظراتها الساحرة ·· انها العناية الالهية ·· للامهات والاطفال ·· ونحن نؤمن بذلك ·· وكذلك ابـاؤنا وامهاتنا والهب الاب دونا حماس فرقـة الـكورال فاستمرت تنشد :

« لتحيا دوقتنا ·· دوقة دى بوربون داميكور ·· وخلال فرحتنا الطاغية سنردد دائما ·· لتحيا ، لتحيا ، لتحيا ·· بدوقتنا الطيبة بيننا » ·· وارتفعت على الفور أربعون ذراعا ممسكة باغصان من الاشجار ، وصاح عشرون صوتا « فلتحيا السيدة الدوقة ·· فلتحيا السيدة الدوقة » ·

واستمعت اديث وهي واقفة فى فناء القصر لهذا العرفان بالجميل وقد علاها التاثر ، وقد اجتذبت هذه الضجة الدوق فظهر وهو مقطب الجبين ، ووضعت طفلة صغيرة فى اللحظة نفسها باقة من الزهور بين يدى اديث ، بينما سار اهل لوركان الواحدة خلف الاخرى فى طابور لمصافحة المحسنة المحبوبة والتفتت هـذه الاخيرة الى الدوق ، وحولت اليه باقات الزهور التى تكدست امامها واستمرت تكرر بلا تعب :

ــ جميل جدا منكم ·· حقا انى سعيدة .. ومرتبكة ، لست ادرى كيف اشكركم ·· :

وانتحى الاب دونا خلال ذلك جانبا ، وسمع الدوق الذى ناء بحمل الزهور فجأة صوتا حادا يهمس فى اذنه :

ــ والان يا بنى ، الم تقتنع بعد ؟

واحتد الدوق وهو يلهث من فرط غضبه :

ــ اقتنعت بوجوب ابعاد هذه الضجة ، باهذه المهزلة وما هذه الاناشيد ، اتعتقدون ان اميكور ميدانا عاما يسمح فيه بسير المواكب !

وفتح ذراعيه فجأة فتساقطت الزهور على الارض امام قدمى اديث ، بينما انقبض وجه هذا الذى يرفض أن يكون سيدها او زوجها « اسف يا آنسة لمغادرتى هذا الاجتماع العائلى ولكن لى عائلة أخرى تناديني ·· وساذهب اليها على الفور » ·

واستدار وكاد أن يسقط الاب دونا الذى حاول منعه من الذهاب وتعب آخر الامر من هـذا الصراع وتتبع بمواساة اديث التى بقيت وحيدة :

ــ لا تقلقى يا سيدتى الدوقة ·· انه يحبك كثيرا ·· لقد افضى لى بذلك ·

ووقف الدوق فى الطرف الاخر من القصر ، وكأنه يريد نفى هذه الاكذوبة البريئة ، واخرج من جيبه الرسالة الزرقاء واخذ يلوح بها وكأنها علم النصر ·

واضطر الاب دونا بعد ذلك الى الاسراع للحاق بفرقته ، وكان يتلفت وراءه الى الانسة اديث المرة تلو الاخرى وكأنــه يريد أن يقـول لها بنظراته : كونى سعيدة ·· لا تهتمى بما حدث ·· كونى مطمئنة ! ·

وسمع فى نفس اللحظة دبيب جواد يجرى مما استرعى انتباه اديث فرأت العربة التى تجرها الفرس العجوز وهى تنطلق مبتعدة فى الطريق ، ولم تتمكن من رؤية سائقها · والتقى الدوق بعد فترة قصيرة بعدد من السيارات على طريق مون ــ دى ــ مارسان مما اضطره الى الانتحاء جانبا ليتفادى الاصطدام بها وليفسح لها الطريق ، وكانت خمس عشرة سيارة نقل مقفلة تماما يتقدمها عدد من سيارات الركوب وهز الدوق كتفيه :

ــ واخيرا ·· هذا ليس من شانى ، اذا كانت تريد استقبال اصدقائها ··

وانطلقت عربات النقل بعد عشرين دقيقة فى فناء

القصر ، وتقدمت اديث لاستقبال الذين هبطوا من السيارات المتقدمة .

– هالو ؟ اهذا أنت يا سميث ؟

– نعم يا آنسة سومفورد .

وتقدم الوكيل على رأس مرافقيه ورفع الجميع قبعاتهم وحيوا اديث .

– أنا سعيدة برؤياك ، هل زال الصداع الذى ألم بك ؟

وتأوه سميث وهو يهز رأسه :

– لم يزل تماما بعد .. ولكن خبريني هل تتزوجين قريبا ؟

– لست أعرف ولكن لا أهمية لذلك ، تفضلوا بالدخول يا سادة .

وتقدم الجميع بخطوات ثابتة ولما اكتمل دخولهم تكلمت اديث :

– الساعة الآن الحادية عشرة صباحا ويجب أن يكون كل شيء قد تم غدا في الساعة نفسها .. كل شيء .. غرفتان للاستحمام . الكهرباء والغاز والماء والتدفئة في كل مكان .. والحديقة بأسرها يعاد تنسيقها وجراج لسياراتي .. بالاختصار كل شيء .

وبانت الدهشة على وجه الجميع الذين التفوا حول سميث وتقدم أكبر الموجودين سنا :

– ولكن هذا مستحيل يا سيدتي .

– كلا .. ليس الامر كذلك .. سأدفع مائتي الف ، ثلثمائة ألف ، أو ستمائة ألف فرنك .. اذا لزم الامر .

وانتابت المقاولين رعشة لدى سماعهم هذه الارقام ، وسرت بينهم موجة من الدهشة ، بينما جذبت اديث الشخص الذي تحدث اليها ورجته :

– ستفعل ما طلبته ، أليس كذلك . ليس لاني طلبته

مقابل النقود ، بل لاني أسألكم ذلك من كل قلبي .

وكانت لهجتها تنطوي على الرجاء والتوسل وذات تأثير عميق ، فأحنى الرجل العجوز رأسه :

– اني من جانبي موافق يا سيدتي ، أما هؤلاء السادة ..

وصاح الحاضرون في وقت واحد :

– اننا موافقون وسيتم اعداد كل ما تطلبينه غدا ظهرا . اننا نقسم لك على ذلك .

وبدأوا العمل فورا ، فجمعوا عمالهم حولهم ولم تمض دقائق حتى كانت سيارات النقل قد فتحت وبعد ساعة كانت مائتا مطرقة تدق مائتي مسمار لتصلح القصر ..

وكان سميث قد احضر معه من باريس جميع الخدم الذين كانوا يعملون بالقصر في شارع ماlاكوف ، وبدأت مطاردة الحارسين العجوزين من غرفتهما ، واضطرا أخيرا الى الالتجاء الى المطبخ حيث وجدا اثنين من كبار الخدم وثلاثة طهاة وعددا من مساعديهم وهم مشغولون باعداد الافران والبطاريات الخاصة بالطبخ ، ولم يجد بيدرو وزوجته مناصا من الخروج الى الفناء حيث وجد فريقا من العمال يقوم بنزع الاعشاب النامية فيه واعادة تعبيده ورصفه ، وكان فريق آخر من النجارين والبنائين يقومون بنزع أبواب الاصطبلات ومخازن الحبوب المختلفة لاصلاحها هي والجدران .

واضطر العجوزان الى مغادرة الفناء والذهاب الى الحديقة ، فوجداها تغص بالبستانية والعمال الذين أتموا العمل في خمسة عشر طريقا فيها ونظفوها من الاعشاب وغرسوا أشجار الزهور والورود وأصلحوا النافورة .

وكانت سيارات النقل في حركة دائمة ما بين ساكس وقصر داميكور خلال الساعات الاربع والعشرين

الاخيرة ، والأطفال والغلمان يجرون فى اثرها وقد أذهلهم هذا النشاط المفاجىء ، واثار اهتمامهم .

وشعرت مرجريت وبيبرو وهما يتبادلان فصوص الثوم وكسرات الخبز على مقعد من الخشب بسواعد قوية تحملهما الى خارج ساحة العمل ، وشاهدا احدى سيارات النقل وهى تنزل مقعدا بن الخرطوم مكان المقعد القديم الذى كانا يحتلانه . وانتقلا الى القبو ليستريحا فوجدا عددا من الاشخاص يقومون برص الف من زجاجات النبيذ وترتيبها . وتراجع بيبرو ومرجريت وغادرا البهو ليستمتعا بالشمس فى الخارج فسمعا أحد رؤساء الخدم يناديهما :

— اهو أنت مدير القصر يا سيدى ؟

واستولت الدهشة على الحارس العجوز وتمتم :

— ماذا .. من قال ذلك ؟

— سيدتى الدوقة .

— يا الهى . اذا كانت السيدة هى التى قالت ذلك فان ذلك محتمل جدا .

— هذا أكيد ، وانت المديرة يا سيدتى ، وتتولين الاشراف على شئون القصر .

وضمت الخادمة العجوز يديها فى رجاء وتوسل :

— لن أشرف على شىء ، وكل ما أرجوه هو ان يتركونى أموت فى راحة وهدوء .

وواصل رئيس الخدم حديثه فى سكون :

— على ان آخذكما الى داكس لشراء كل ما يلزم لكما من ملابس .

ولم تمض لحظات حتى كان الزوجان يستقلان سيارة فاخرة انطلقت بهما الى البلدة التى عادا منها وهما يرتديان ملابس لم يرتديا مثلها منذ يوم زواجهما ، وكان

بيبرو يرتدى حلة من القطيفة محلاة بأزرار نحاسية وحذاء طويلا برقبة من الجلد اللامع ، ويلبس قبعة بأشرطة ذهبية .

ورأيا فى المساء الانسة اديث يحيط بها رتل من الوصيفات وهى تخرج من غرفة الاستحمام التى تغطى جدرانها المرايا ، وتستعد للنزول الى غرفة المائدة التى لم تفتح منذ عشرين سنة . وفى المساء نفسه ولاول مرة منذ عشرين عاما قام الخدم باعداد المائدة لبيبرو وزوجته على انفراد ، وشرب الاثنان نبيذ « سان ــ ليون » المعتق ، وناما فى فراش وثير جديد فى حجرة كسيت جدرانها بنسيج فاخر . وغرقا فى احلامهما الذهبية رغم رائحة الطلاء الحديث والدق المستمر الذى كان يهز القصر طوال الليل .

وفى الساعة الرابعة من مساء اليوم الثانى دخل المقاول العجوز غرفة الزينة التى كسيت جدرانها بالحرير الازرق السماوى وانحنى محييا اديث :

ــ سيدتى .. لقد تم كل شىء وفق مشيئتك .

وطلبت اديث شمبانيا ، وشرب نخب السيدة الدوقة مرة أخرى ، وسحب سميث الانسة اديث جانبا وسأل :

ــ هل انتهت مهمتى يا مس سومرفورد ؟

ونظرت اليه الفتاة فى تفكير عميق :

ــ كلا لن تنتهى الا بعد أن يتم زواجى يا عزيزى سميث ، ويحسن أن تتنازل عن معالجة الصداع الذى ألم بك .

ولم تنتظر اديث لتشاهد وجه الوكيل الذى تجهم ، واستدارت الى المقاولين والحت عليهم باخلاء القصر فى أسرع وقت ممكن . وكان سميث آخر من ركب السيارة :

ــ انى لاتساءل .. اين الدوق ؟

وترددت الفتاة لحظة :

ــ هرب ــ كالرجل الاخر .. ولكنه سيعود ..

ورفعت يدها مشيرة بالوداع وقد انكسى وجهها بمسحة من الحزن ، وعادت الى القصر الذى تغيرت معالمه .

ولم تمض ساعة على ذلك حتى ظهرت العربة فى الطريق يقودها الدوق وقد دهش لدى رؤيته سور القصر الحديدى وقد جدد طلاؤه بلون ذهبى ، ووقف خادم لا يعرفه فى انتظاره ، وفتح له مصراعى الباب الحديدين ؟

وهبط الدوق من العربة وتركها والفرس واتجه نحو الاصطبل فادهلته الرائحة التى تفوح منه وعاد الى العربة وتحدث الى شخص غير ظاهر داخلها .

ــ ما كل هذا . هل اخطأت الطريق انظرى يا صديقتى ..

ومالت المختفية التى بحدثها الى الامام وقالت :

ــ هذه مفاجأة ياعزيزى ..

ــ حسنا وقد أعددت لها أنا الاخر مفاجأة أخرى .

ــ لا تكن شريرا ياشارل ، ولا تدعنى اندم على ما افعل .

وتخلت العربة الحديقة التى زينت ونظمت على الطريقة الفرنسية ، وتوقفت أمام واجهة القصر التى تشع الاضواء من نوافذه ، وفتح الباب الرئيسى ووقف اثنان من الخدم فى زيهما الازرق المحلى بالشرائط الذهبية فى الانتظار وهما صامتان وهرع اثنان من السياس الى الفرس المتعبة من الرحلة الطويلة ليقوداها الى الاصطبل الذى غصت جوانبه بالمؤن لاطعام الجياد .

ركبت الدوق دهشة وقفز من العربة ، ولمح بييرو واقفا وقد بدت عليه الهيبة فى زيه الجديد :

ــ الا يعجبك هذا التغيير ياسيدى شارل ؟

ــ اسكت فانا لم اسألك شيئا .

وظهرت اديث فى ثوب بديع للمساء ، واشارت بيدها الى القصر الذى جددت وتغيرت معالمه ،ولم تطرف للدوق عين ولكنه انحنى أمامها وابتسم فى سخرية .

ــ لا بأس بهذا التجديد ان لك ذوقا طيبا ولكنى أنا الاخر حسن الذوق اليس كذلك ؟

واستدار نحو العربة ومد يده الى زميلته المختفية فيها ، واستندت هذه الاخيرة بالكاد على اليد الممدودة اليها وهبطت عند نهاية الدرج وراحت اديث تنظر اليها فى دهشة وقد غاضت الدماء من وجهها . وتقدمت الفتاة نحوها مادة يدها .

ــ اقدم اليك الانسة لوسيل دى جراس خطيبتى ..

وبدرت من اديث صرخة خافتة :

ــ اه لم اكن أعرف ..

ومدت يدها المرتجفة نحو القادمة التى قالت : أنا سعيدة يا آنسة لقد حدثنى شارل عنك .

ــ وانا ايضا سعيدة بمعرفتك ولكننى حزينة بعض الشىء .. نعم انى حقا حزينة واستندت الامريكية الشابة لحظة الى الباب وقد ضمت شفتيها ، بينما ناول الدوق أحد الخدم قبعته ومعطف رفيقته وعندما استدار نحو اديث كانت هذه قد استردت ثباتها .

ــ اعتبر نفسك فى بيتك يادوق وأرجو أن تتولى ارشاد الانسة واطلاعها على القصر .

وانحنى رأسه معللا بذلك على موافقته وبذلت اديث جهدا لتقول أشكرك ..

وراقبتهما وهما يعبران البهو ، ثم استدارت الى أحد الخدم .

ـ اعطني معطفي بسرعة •

وما ان القته على كتفيها حتى اسرعت الى الجراج حيث كان السائق ينتظرها بجانب السيارة الطوربيد الضخمة •

قفزت اديث داخلها وادارت المحرك وصاحت :

ـ افتح الباب •• سنرحل •

وبعد لحظة كانت تنطلق فى الطريق بأقصى سرعة كعادتها دائما •

• • •

الفصل الثامن

كان الاب دونا يجلس على رصيف الابرشية ممسكا بيده كتاب الصلاه يقرأ فيه بينما كان يداعب كلبه بيده الاخرى •

وبينما هو غارق فى القراءة والتفكير اذا به يسمع صوت آلة التنبيه لسيارة مقبلة ، وخفض الكلب رأسه وزمجر ثم اتجه الى سور الحديقة وأخذ يشم بشدة ، وسمع صوت آلة التنبيه مرة أخرى فاتجه الاب دونا نحو الباب ليرى من القادم الذى يعكر صفو السكون فى لوركان بمثل هذه الضجة •

ولم تمض لحظة حتى رأى سيارة ضخمة قادمة نحوه فى هدير قوى ، وتوقفت أمام باب الابرشية ، وصاحت سيدة شابة عصبية يبدو عليها الانزعاج :

ـ ياسيادة القس •• ياسيادة القس •

وأمسك الاب دونا بمقبض الباب بيد ترتجف بينما أخذ يكرر

ـ سيدتى الدوقة •• سيدتى الدوقة ••

وما ان فتح الباب حتى اندفعت اديث داخلة ، بينما جرى عدد من الاطفال والغلمان ليشاهدوا « العناية الالهية » كما أسماها سيادة القس الذى قاد الفتاة الى غرفة مكتبه حيث توجد أريكة خشبية وقد زينت الجدران

بصور القديسين ، وضم قس لوركان يديه :

— سيدتي الدوقة .. اي شرف هذا .. تولينه لبيتي المتواضع ...

فامسكت بيديه بحركة لا ارادية وضغطت عليهما .

— لم اصبح دوقة بعد ياسيادة القس وهذا مما يؤسف له .

— كيف لست دوقة ؟

— كلا ياسيادة القس .. اليس هذا بالشيء المؤلم ؟

وخلعت الفتاة معطفها وجلست على طرف الاريكة ، بينما ألقى القس بنفسه على مقعده أمام المكتب ، وقد انحبس صوته لفرط فزعه .

— انت لست دوقة ! .. ما معنى هذا ؟

— ان المسألة في منتهى البساطة .. لقد اتى الدوق بخطيبته .

وانتابت القس رجفة :

— ماذا تقولين ؟ خطيبته ؟ ياله من حيوان .. اراد البقاء أعزب طوال حياته ، وهاهو الان يقف متحيرا بين سيدتين .

— نعم ، خطيبته حقا .. تصور ياسيادة القس مدى نكرانه للجميل .. لقد جددت القصر وغيرت معالمه لاعد له مفاجأة سارة ولكنه لم ينطق أمامي بكلمة شكر واحدة ، بل مد يده بدلا من ذلك الى شابة وقال لي في ادب « اقدم لك خطيبتي » .. وهكذا كان مسلكه يا سيادة القس .

ولم تفكر اديث حتى في مسح دموعها التي كانت تسيل على خديها ، واستولت الحيرة والالم على الاب دونا وهو يردد :

— اي بنيتي المسكينة .. علي بقليل من روح النعناع ياماري ليس لسيدتي الدوقة فقد انتابتها وعكة خفيفة .

واخذ بذلك يدي محدثته برفق وهو يرجوها .

— يجب الا تبكي .. فالبكاء يسيء الى جمالك ولن يغير شيئا .. كيف تربينها ، هذه ...

— أواه ياسيادة القس ، انها افضل مني بكثير ، فهو يحبها .. ان شعرها كستنائي وعينيها سوداوان ولها طابع الحسن عند طرف شفتيها .. انا أعرف انه تلقى خطابا صباح امس من هذه الفتاة .. واسمها لوسيل .. لوسيل دي جراس على ما اعتقد وقد أراني الخطاب وقال لي : « انا مسرور جدا » انه في منتهى القسوة اليس كذلك ؟

ودخلت ماري ليس وهي ممسكة بملعقة بها قطعة سكر اغمست في الكحول وقدمتها للانسة أديث وشكرتها هذه واستأنفت الحديث .

— وما العمل الان ؟ ما الذي يمكنني فعله ياسيادة القس ؟ لا شيء ، اليس كذلك ؟ لا فائدة ترجى .. يحسن بي أن ارحل .. سأترك له القصر واعود الى أمريكا ..

وفاضت عيناها بدموع حارة مريرة ونظرت الى القس الذي ارتسمت على وجهه ابتسامة حزينة .

— ارجو ان تفهمني ياسيادة القس ، انا ارملة علما بأني لم اتزوج ولم أهنأ حتى بحب احد لي .

— ولكن ياسيدتي الدوقة يابنيتي الصغيرة ..

— آه ارجوك الا تناديني بهذا اللقب الذي لا أملكه .. انا أديث سوتفورد امريكية مسكينة كان الافضل لها البقاء في بلدها أمريكا . وقاطعها القس في حدة .

ـ ابدا .. لن تعودى .. يجب ان تبقى هنا . لن تعودى . يجب ان تبقى هنا .. سامنع هذا الزواج الذى يعتزمه شارل ، ساكتب الى قداسة البابا ، يجب الا ترحلى من هنا .. انى امنعك من الذهاب .. هل فكرت فى فقرائنا المساكين ، ما الذى يحل بهم بعد رحيلك ؟

ـ ياسيادة القس ، لا استطيع رؤية الدوق طوال حياتى وهو لا يحبنى .

ونظر الاب دونا الى الفتاة وهز رأسه .

ـ لا تهتمى بذلك .. الا تعرفين ما اعنى ؟ حسنا ، اصغى الى

وقال نحوها ان الامر ليس على هذا القدر من الخطورة كما تعتقدين انك تنساقين وراء اوهامك ، انك تخطئين بذلك ، اتفهميننى جيدا .. ؟ وهذا ما لا يجوز اطلاقا .

ـ ومع كل ..

ـ كلا .. كلا .. صدقينى يافتاتى الصغيرة انا اعرف لوسيل .. وهى بالذات التى افكر فيها ؛ انها لا يمكن ان ترتكب اى عمل سيىء سارأها .. ساذهب الى القصر ، ساخذ عربة واذهب لرؤيتك هذا المساء .. يجب تدارك الامر باسرع مايمكن ..

ـ اواه .. انى اذكر يا سيادة القس انك قلت صباح امس ان الدوق يحبنى .

ـ اقلت انا ذلك ، ولكنى قلته بكل تاكيد .. واذا تظاهر بعدم حبك ، فانه سيقاسى عذاب الجحيم .

وهزت اديث رأسها .

ـ لا أعتقد ان الجحيم سيغير الاوضاع .. ان له خطيبة ولم يبق أمامى سوى الرحيل ولكننى أتساءل لماذا لم يصارحنى بذلك على الفور . كان ذلك يخفف من أحزانى لانى .. واخذت تلهث ثم انخرطت فى البكاء ..

ـ لانى انا أحبه ، ياسيادة القس ، انى أحبه فهو رجل مهذب قوى البنيان وسيم الطلعة انه حقا الزوج الذى كنت احلم به .

ـ حسنا ستعودين الآن الى القصر فى هدوء ياسيدتى الدوقة ، لانك بالنسبة لى ، السيدة الدوقة ، ولست أعرف دوقة غيرك ، وستتناولين طعام العشاء مع زوجك ـ وتلك الفتاة ؛ وسالحق بكم فى اقرب وقت .

ونظرت الفتاة اليه شاكرة .

ـ آه يا سيادة القس انك رجل طيب اليس كذلك ؟ ..

ـ ولكن لا . لا .

ـ نعم .. نعم وسارسل لك السيارة بمجرد عودتى الى القصر ، وارجو ان تحضر على الفور ووقفت وهى تضم يديها أمام الاب دونا

ـ انك ياسيادة القس لست زوجى ، ولكنك طيب جدا طيب جدا معى .

وتراجع القس قليلا وهو خجل ، ولكن اديث بطبعها اللاتينى اندفعت نحوه وتعلقت برقبته وقبلته بينما عقدت مارى ليس ، التى لم تنقطع عن المشاركة فى سماع الحديث ، يديها فوق رأس الشابة واستنزلت عليهما بركات السماء .

واسرعت اديث تتناول معطفها بعد ان انطبعت قبلاتها على خدى القس وسألت وهى لاتزال قلقة :

— واذا لم يرد الاستماع اليك ... ما العمل اذا تزوجها ؟

وانتصب الاب دونا رافعا هامته ومادا ذراعه الى الامام وقال فى هيبة ووقار

— اقسم لك امام الله ٠ انه لن يتزوجها ..

• • •

الفصل التاسع

سلم الدوق ولوسيل دى جراس معطفيهما الى احد الخدم بينما فتح آخر لهما باب الصالون الكبير على مصراعيه ؛ ولم يتمالك الدوق نفسه عندئذ وصدرت منه صرخة تنبئ عن بالغ دهشته ؛ فقد جددت الجدران وكسيت باغلى انواع النسيج ، وعلقت عليها الصور بنظام بديع وغطيت الارض بالسجاد الثمين وانتشرت قطع الاثاث الفاخر فى ارجائه وفى نظام يدل على سلامة الذوق وكانت النيران تتأجج فى المدفأة .

ودخل فى اثر الاثنين خادم يحمل صينية عليها مختلف انواع الكوكتيل ، فتناولت لوسيل كأسا ، واخذ الدوق أخرى بعد تردد قصير ؛ وسأل الدوق الخادم وهو يهم بالخروج

— متى بدأت العمل هنا ؟

— منذ امس ياسيدى الدوق ، نحن نعمل فى قصر الدوقة التى طلبت ان نحضر من باريس فى قطار خاص ٠

— حسنا ، أشكرك

وخرج الخادم ، وانفجرت لوسيل ضاحكة وهى تراقب وجه الدوق الذى بدا الضيق على اساريره وهو ينظر الى الاثاث الفاخر حوله ثم الى ثوبه المخملى وحذائه المكسو بالغبار ٠

— والآن ياشارل مارأيك فى كل هذا ؟

— اعتقد يا لوسيل ، اعتقد انه ..

— ان ما سألتني ان اقوم به ليس جميلا ولا ينطوي على شيء من الرقة واللباقة

ووضع الدوق كأسه فجأة على مائدة صغيرة فاخرة وتقدم نحو لوسيل :

— ارجوك الا تتخلي عني .. اني لا استطيع قبول هذا التدخل في حياتي ويجب أن تنتهي هذه المهزلة . ان المرء يشتري الكثير بالمال ولكنه لا يستطيع شراء قلب رجل

— هذا صحيح ياشارل ولكنك قلت لي ان هذه ولنقل ، زوجتك ، قبيحة ، ولكنها في الواقع جميلة جداً .

— الواقع . انني لم ادقق النظر ابدا في وجهها .

— ولكن هل أنت واثق من انك لم تنظر اليها جيداً ؟ لقد بالغت في تصوير سوء الموقف حتى انى اعتقدت على الفوران المسألة ليست تافهة بل مسألة رجل يحب .

— ارجوك يالوسيل . انى اؤكد لك انك مخطئة . وسأثبت لك ذلك اذا ساعدتني كما وعدت .

— آه ، يا .. يجب بدورك أن تعترف بأنى لم اعدك بالمساعدة لقد اتيت لانك استحلفتني بصداقتنا القديمة ، وهذا هو كل ماحدث .

ودخلت في هذه اللحظة سيدة ترتدي ثوبا مفتوحا عند الرقبة لم يتعرف عليها الدوق في أول لحظة فمال الى الامام وطرف بعينيه ثم قال فجأة :

— هذه انت يامرجريت . ! ماهذا الثوب العجيب ؟ اترتدين الآن ثوبا للمساء .. وجوارب حريرية وحذاء فضيا . هيا ، اخلعي كل هذا وارتدي طاقيتك وثوبك العادي .

واكتأبت الخادمة العجوز التي كانت تعجب بلباسها في مبدأ الامر وقالت في صوت تخنقه العبرات .

— لا استطيع ذلك ياسيدي شارل . انها سيدتي الدوقة هي التي امرت بذلك . وقد عينتني مديرة للقصر .

وقامت لوسيل على الفور واحتضنت العجوز وقبلتها .

— لا تهتمي ولا تحزني ياعزيزتي المسكينة لقد ان لك ان تستريحي وهذا حقك . اما الدوق فهو ناكر للجميل .

وفي مرح هتفت مرجريت التي لم تكن رأت الفتاة بعد :

— آه الآنسة لوسيل ، ما اسعدني هل اتيت للتعارف بسيدتنا انها تشبه تماما والدته السيدة الدوقة في شبابها وما اكثر حبها لعزيزنا شارل فانها تتحدث عنه في محبة واخلاص ، عن زوجها الذي تعبده .

وهز الدوق رأسه وقد اعتراه الخجل :

— اننا لا نسألك عن مشاعرها الخاصة اذهبي واعدي غرفة للآنسة لوسيل .

— حسنا يا سيدي : اية غرفة تفضلها الآنسة لوسيل ؟

— آه اني انام حيثما كان .

— هناك غرف كثيرة من طراز الغرف في عصور كل ملوك فرنسا . وهناك بيرو الذي يشرف على جميع الخدم . نعم ياسيدي شارل . يوجد خمسة عشر خادما بخلاف الطهاة .

وقالت لوسيل في ابتهاج : — ياله من تغيير !

— نعم . وياله من تغيير جميل انني افضل الحال الآن عن ذي قبل . ولكن ما هذا ياسيدي شارل انك لن

فتبقى في مثل هذه الثياب غير اللائقة انك لا تستطيع البقاء بسترتك وسراويلك هذه في هذا القصر ..

وصدقت الفتاة على قولها

— بكل تأكيد اذهب وغير ملابسك يارشال انك اشبه بلصوص الصيد .

— هذا صحيح ، ولست أنك في ذلك اذهبي واعدى ملابس يامرجريت .

والتفت الدوق الى لوسيل بعد أن خرجت مارجريت وقال في ضيق والم :

— هاك ما وصلت اليه ياصديقتي المسكينة .

— وماذا تريد ؟ هاك زوجة من أمريكا بدلا من ابن أخ أمريكى . ما الذى تشكو منه

— انا أرثى لنفسي وقد اصبحت مقيدا .

— دعك من هذا القول ايها العنيد ، ان جميلتك المجهولة قد ارخت لك العنان على ما يبدو في الساعة الراهنة ، ويعلم الله ما اذا كانت ستتركك سائرا على هواك دون ان تتحرك .. انى اعجب بها .

ومد الدوق يده نحو لوسيل في رجاء وتوسل .

— لوسيل ، لوسيل ، لا تتخلى عني .

وخرج مسرعا واخذت لوسيل تدور في الصالون وهي معجبة بسلامة الذوق البادية في تأثيثه . وشعرت فجأة انها لم تعد وحدها فيه ، واستدارت فرأت اديث واقفة في سكون وهي تراقبها بعناية . وتبادلت الفتاتان النظرات في صمت ، ثم علت وجه اديث ابتسامة حزينة .

— اعتبرى نفسك في بيتك يا انسة .. لم تعد لى اية صفة هنا .

وتقدمت لوسيل بضع خطوات وهى تبتسم بدورها ، ووقفت الفتاتان وجها لوجه . كانتا مختلفتين تماما في المظهر . ولكن كانت لهما نفس النظرات الصافية ونفس القوام الجميل .

وسألت اديث في صوت مختنق :

— انك تحبينه كثيرا . اليس كذلك .. شارل ، اعنى خطيبك ؟

وترددت الانسة دى جراس لحظة ثم غضت من نظراتها .. وتذكرت رجاء الدوق ولكن خانتها شجاعتها ولم تستطع الكذب واستأنفت اديث الحديث في عناد :

— آه .. انى فاهمة .. انه رآنى منذ يومين فقط ولا يكاد يعرفنى .. انه لا يمكث هنا ابدا ولا يمكنه ان يفهم ما اكنه في نفسي . انه الرجل الذى احببته ، ولكن هذا لا يهم .

واستمرت لوسيل صامتة ولم تجب ، وكانت تمسك ثوبها باصابعها في حركات عصبية .

واتجهت بأصابعها وقالت في صوت يرتجف :

— ارجوك ان تجيبينى من اجل سعادة شارل . انى اقسم لك انى لست شريرة . انتى غريبة .. امريكية .. واختلف عنك ، ولكن لست اجرؤ ان اقول .. انا .. انا احبه .

وامسكت بيد لوسيل في لطف وخجل :

— انا احبه .. لا تتضايقى من قولى هذا ، سارحل ولا

اريد ان اعرض نفسي عليه رغما عنه ، كان يجب الا اعود الى هنا،لقد قابلت الابدونا وطلب منى ان أعود،وأطعته لانى اردت ان ارى الدوق مرة أخيرة ، ولكننى سارحل غدا ، آمنت بالسعادة ثلاثة ايام ٠٠ ولا اومن بها بعد الان .

وتراجعت اديث على كره منها واتجهت نحو الباب، ولم تكن لوسيل قد تعلقت بحرف واحد،ولكنها عندما رات اديث تضع يدها على مقبض الباب نادتها :

ـ يا انسة ٠. يا انسة ٠٠ لا تذهبى .

واستدارت اديث نحوها بسرعة :

ـ ولماذا ٠٠ ان قلبي محطم .

واسرعت لوسيل نحوها وهمست :

ـ ما الذى تقولينه .. ؟ لو انك علمت بطريق الصدفة ان لك قريبة تحبك ولا تضمر لك الا كل خير ؟ .

ـ اعمل كل مايمكن لاسعادها ، مثلما تعمل هى لى. لم يحدث ابدا ان كان لى صديقات فى امريكا ، لم يكن تعمل لى سوى منافسات . . . والحصول على صديقة .. شىء عزيز جدا . وتابطت لوسيل ذراعها .

ـ اصغى الى ٠٠ لا تقولى او تفعلى شيئا ، وتظاهرى بانك لم تستبينى اى شىء، واذا كنت فى لحظة ماشاركت الدوق شارل ابن خالى فى هذه اللعبة القاسية ، فلم يكن ذلك الا لاننى لا اعرفك ، ولا يمكن ان تستمر هذه الحالة .

واعترفت فى صوت خافت جدا :

ـ اقسم لك ، هل تسمعيننى ، اقسم لك اننى لست خطيبته . اننا نعرف بعضنا منذ الطفولة ، هذا صحيح،

ولكننا لم نفكر ابدا فى الزواج ، اقسم لك على ذلك .

واصفر وجه اديث وضمت قبضتيها وصاحت :

ـ بالله عليك .٠ اهذا صحيح ؟

ـ انى اقسم لك .

وهمت اديث بالاجابة ولكنها شعرت بمقبض الباب يتحرك تحت يدها ، فابتعدت لوسيل عنها بسرعة وهى تضع اصبعها على شفتيها ، وانفتح الباب ودخل الدوق وقد بدت عليه الوجاهة فى ثيابه الانيقة ، وراى الفتاتين وهما تقفان متباعدتين ولوسيل تتصفح كتابا ، بينما وقفت اديث وهى لا تزال ترتجف وقد ابيضت شفتاها ولمعت عيناها فعلت وجه الدوق ابتسامة وقال فى لهجة جافة :

ـ مساء الخير .

ـ واستدار فوجد مرجريت خلفه فى ثوبها الجديد ، وسال فى لهجة ساخرة :

ـ على فكرة اراك تتخذين الان من خدمى اصدقاء لك .

وارتجفت اديث واستدارت ذاهلة ، ورات مرجريت ترمقها بنظرة ودية مشجعة ، وعندها هزت كتفيها وقالت فى ترفع واستخفاف :

ـ وماذا تريد ياعزيزى .؟ انك تتغيب دائما، وليس من اللائق بك ان تتركنى وحيدة ، لقد التجات الى اولئك الذين يمكننى الاعتماد على ودهم وعطفهم . انهم امناء وطيبون .

وشعر الدوق برجفة ازاء هذا اللوم . وقال فى صوت مقتضب وهو يشير الى لوسيل :

ـ ستكون الانسة دى جراس معك من الآن فصاعدا .

وبحركة لا ارادية اتجهت اديث نحو لوسيل واحاطت عنقها بذراعيها لتقبلها .

وقبلتها امام الدوق المذهل وهى تهمس :

ـ اشكرك .. واشكرك من كل قلبى .

وتلا ذلك صمت قطعه احد الخدم وهو يعلن :

ـ اعددت المائدة يا سيدتى الدوقة .

وانتقلوا الى الغرفة المجاورة التى حولت الى غرفة للطعام ، فوجدوا المائدة تتوسطها وقد اعدت لثلاثة اشخاص . وبريق الاوانى الفضية والاكواب البللورية يخطف الابصار ، ووقف خلف كل مقعد خادم فى الانتظار وهو صامت . واجلس الدوق لوسيل الى جانبه ، بينما قنعت اديث بالجلوس فى مواجهتها . وتعمد الدوق الا يتكلم الا مع ابنة خاله بصوت خافت ، وانقبض وجه اديث ولكن لوسيل لم ترد المشاركة فى هذه المناورة واجابت على السؤال الموجه اليها بصوت عال :

ـ نعم بالتاكيد .. انى اجد هذا بديعا جدا ، وان المرء ليكاد يعتقد أن ساحرة صادفتك فى طريقك وبلمسة من خاتمها السحرى بعثت الماضى وعادت بالابهة والعظمة اللتين خلق لهما هذا القصر ..

وكوفئت على هذا الرد بنظرة شكر وامتنان ، واراد الدوق فيما بعد ان يمسك بيد لوسيل ولكنها سحبتها منه بحدة فبقى مذهلا ، وضحكت الفتاتان بصوت عال فقطب حاجبيه وكتم غضبه حتى نهاية الاكل ، وعبثا حاول مناداة لوسيل بقوله يا خطيبتى ، اذا كانت تجيب عليه قائلة « يا ابن الخال » .

واشارت اديث برفع المائدة عند الانتهاء من الطعام فامسك الدوق بذراع لوسيل وسأل :

ـ الا تصحبيننى لتعجبى بتنسيق الحديقة الذى ..

وسارعت لوسيل الى اتمام الحديث :

ـ الذى .. تدين به للانسة . اذا هى ارادت ان تصحبنا ، فساكون بالتاكيد مسرورة بمرافقتك .

وهزت اديث راسها معترضة ، وقالت وهى تحاول التظاهر بالمرح :

ـ كلا .. انى فى الحقيقة متعبة ، اذهبا انتما بدونى .

واظهرت لوسيل اسفها ، وحاولت ان تبدى نصيحة اخيرة لاديث فاستدارت الى الدوق .

ـ اسمعنى .. انى اقبل رغم ان .. زوجتك .. لا تريد مرافقتنا معا .. ولكنى اخشى اغضابها .. هلا سمحت باحضار شال لى من غرفتى .. فاكون لك شاكرة .

وانحنى الدوق وانصرف . واقتربت لوسيل من اديث بسرعة وهمست :

ـ لا تخشى شيئا .. سارك فى اقرب وقت ، وسنقرر ما يجب عمله ...

وضغطت الامريكية على يد لوسيل وهى تمسك بها ..

ـ اشكرك .. على فكرة ، ان الاب دونا سيحضر حالا .. لرؤيتك ؛ لقد وعدنى بذلك .

ـ الاب دونا .. هذا افضل لنا .. انه رجل طيب وسيساعدنا .. سأتحدث معه ... الى اللقاء قريبا وكونى مطمئنة .. انى صديقتك ..

وبنظرة ودية متبادلة ، افترقت الفتاتان ، وعبرت لوسيل الصالون الى باب يؤدى الى الحديقة بينما صعدت اديث الى غرفتها .

كان الليل صافيا والنجوم تلمع فى كبد السماء ، وهبطت لوسيل الى الحديقة وسارت بضع خطوات فى أحد الممرات وهى حالمة . انها لم تفهم مسلك الدوق ، واحست بذلك الشعور النسائى بانها تتآمر مع اديث بصورة لم تخطر لها من قبل . لقد اعجبت بهذه البراءة والصراحة والاخلاص ، وهزت راسها واخذت تحدث نفسها وتعيد الكلمات بصوت عال :

ـ يجب الا ترحل .. كلا لا يجب ذلك .

وانتبهت مذعورة من تفكيرها عندما سمعت صوتا هادئا لطيفا الى جانبها ، لقد وصل الاب دونا من ممر يتقاطع مع الممر الذى سلكته ، ومد يده اليها .

ـ انك محقة يا انسة لوسيل . لا يجب ان ترحل ، اعنى سيدتنا الجميلة صاحبة القصر ، وعلى العموم ارجو الا تكون هناك كلمة واحدة صحيحة فى كل ما حدثتنى به هذه الفتاة المسكينة لتوها ما هى حكاية هذه الخطوبة الجديدة ؟ .

واجابت لوسيل وقد اعتراها الخجل :

ـ اسمع يا سيدى القس ، ان ما قالته لك هذه الشابة صحيح . لقد خدعت بمتاعب ابن خالى واحزانه الخيالية التى تسببها له هذه الفتاة ، واعتقدت ان المسالة لا تتعدى خداع هذه الدخيلة التى تضايق شارل المسكين . ولكننى قبلت الدور الذى ارادنى ان العبه مكرهة وانا اقسم لك الان انى ساكون شريكتك ..

وصاح الدوق من أعلى الدرج :

ـ هل انت هنا يا لوسيل ؟ لقد عثرت على شالك بعد لأى ، وها هو ..

وهمس الاب دونا بسرعة :

ـ اتركينى وحدى معه .. اريد ان اتحدث اليه ، سأقابلك بعد قليل فى فناء القصر الرئيسى قبل ان اغادره ..

ـ اتفقنا يا سيدى القس .

وسمع الاثنان وقع أقدام الدوق على الرمل ، واعتقد الدوق انه وصل الى حيث توجد لوسيل ، ولكنه سمع صوت القس الحاد وهو يجيبه .

ـ مساء الخير يا بنى .

ودهش الدوق ولكنه كتم شهقته .

ـ انت هنا يا سيادة القس .. ! يا لها من مفاجأة سارة .. كل الاحداث السعيدة او الاليمة التى تصادفنى .. تعالى .. اسرعى .

وامسك بيد لوسيل وهو يحاول التظاهر بانه لا يرى غيرها .

ـ اقدم لك خطيبتى ، انك ترى امامك اسعد الرجال .. و ..

وقاطعه الاب دونا بحدة :

ـ الا تعلم ان الزواج بين ابناء العم ممنوع من الكنيسة ..؟

ـ وما فى ذلك ؟ سنحصل على اذن بالزواج .

ـ اعتقد على العموم انى لن اساعدك فى هذا الشأن ،

بل بالعكس اذا سئلت عن رايي بصفتي من اقدم اصدقاء العائلة فاني ساعارض بشدة وبكل ما املك من طرق رسمية .

ــ ستستغني عن موافقتك بكل اسف يا سيادة القس .

واحست لوسيل بأن الحديث سيتطور ويسوء فقالت :

ــ لست افهم شيئا من هذه المسائل يا سيادة القس ، واعتقد انني لم ارضخ لطالب شارل الا لالحاحه وتوسله . ساغادركما لتتحدثا في حرية وصراحة بينما اذهب انا الى القصر لاعد بعض المرطبات .

وتخلصت من قبضة الدوق بسرعة وهي تضحك وانطلقت نحو القصر الذي تشع منه الانوار ، وامسك الاب دوتا بذراع الدوق وسحبه معه نحو الحديقة رغم أنفه .

ــ قل لي الان يا شارل ، ما كل هذه الالاعيب والمناورات ؟

ــ انها ليست بمسألة مناورة انى أريد أن اتزوج لوسيل التى احبها ..

ــ التى تحبها ؟ .. اخر خبر ! انت واثق يا بنى من انك لا تترك الفريسة لتمسك بالظل .

ــ لست افهمك .

ــ استمع لى لحظة ..

ووجد الاب دوتا مقعدا فاجبر الدوق على الجلوس ووقف امامه محذرا :

ــ اسمع يا شارل ، ما الذى تريده بالضبط ؟

ــ اريد ان لا اراها ... فلنرحل من هنا ..

ــ ولكنك تعلم انها هنا في بيتها .

ــ اذن ، سارحل انا ..

ــ ولكنى اعتقد انك قطعت على نفسك وعدا امام الاستاذ روميجو . الم تتقيد امامه بكلمة الشرف ؟

ــ أتعلم ذلك ايضا ؟ انك بلا شك تعرف الكثير .

ــ نعم يا بنى .. انى ملم بتصرفاتك . اتعتزم الاخلال بكلمة الشرف التى اعطيتها والحنث بوعدك ؟

ــ انى لا استطيع ان اجيبك يا سيادة القس .. ارجو ان تفهمنى .. انا فقير .. وهى غنية جدا . ولست اريد ان تستعبدنى . وفضلا عن ذلك فانى أعرف لوسيل منذ امد طويل واذا كنا انا وهي لسنا اثرياء فانى اكون واثقا على الاقل انها ستكون زوجة صالحة ..

ــ ولكن .. هي تحبك ؟

ــ انى لم اسألها عن ذلك .

ــ حسنا جدا ، اعتقد انها باستثناء مشاعر الصداقة التى تكنها لك ، لم تفكر اطلاقا فى الزواج منك ، بينما الانسة سومفورد تحبك .. وانت تعلم ذلك .. فهل تبغضها الى هذا الحد

وندت عن الدوق صرخة .

ــ انى لم أقل ذلك يا سيدى القس .

ــ ومع كل فهذا هو ما يعتقده كل من يرى مسلكك . انك منذ ثلاثة أيام لا تبحث الا عن اذلال هذه الفتاة

واضطهادها وايلامها .. اهذا هو الدور الذى قررت ان تلعبه .. ؟

اتعتقد ان سيادة الدوق والدك وهو الرجل المهذب الاصيل كان يوافق على ذلك ؟

ـ ما هذا الذي تقوله يا سيدى القس ؟

ـ انك بالطبع لم تفكر في ذلك .. اصغ الى يا شارل ، انك بسبيل تضييع السعادة وانت مطاطا الرأس . انك تلعب دور الرجل الحساس وانا بالتأكيد اوافقك .. ولكن هل انت واثق في قرارة نفسك بانك لا تعتقد في العكس ؟

وحاول الشاب الوقوف وقد ازدادت عصبيته .

ـ اجبنى يا شارل ..

ـ لا استطيع .. كلا لا استطيع ..

ـ انك تحبها يا بنى المسكين .. وانت تعرف ذلك جيدا .. كيف لا تحب هذه الفتاة وهى التى لا تتمنى سوى سعادتك ؟ ..

وهز الدوق رأسه .

ـ لا اريد ان اعرف اى شيء .. لا اريد .. ولا استطيع ان اعرف .. لقد قلت لك انى فقير وهى غنية .. وهذا يكفى لازالة كل المشاعر التى قد اكنها لها .. ولست اشعر باى شيء نحوها .

ـ ماذا تقول ؟

ـ لا اشعر بشيء نحوها .. كلا .. اعتقد انى لا اشعر بشيء نحوها .

ـ فليكن .. انك تسيء الى نفسك .. وانا اعلم الان ما ينبغى على عمله .

وابتعد الاب دونا بضع خطوات وتبعه الدوق .

ـ ما الذي تقصده بذلك . يا سيدى القس ؟

ـ يا بنى العزيز بما انه ليس هناك ما يربطك بهذه الفتاة ، فليس هناك في الواقع فائدة من تركها تقاسى من ترفعك واحتقارك لها ..

ـ احتقارى .. ولكن ليس هذا احتقار .. انك لا تريد ان تفهم ..

ـ بلى ، انى فاهم يا بنى المسكين .. انك على حق .. انت لا تحبها .. وتحب ابنة خالك التى ارجو ان تبادلك هذا الحب .. واما من جهة الانسة سومفورد فانى سأشرح لها الامر . سأقول لها ..

ومد الدوق يده نحو قس نور كان وهو شارد اللب .

ـ اسمع يا سيدى القس .

ـ ماذا ايضا ؟ ..

ـ لا شيء .. افعل ما تشاء .

ونظر القس الى تلميذه القديم في شفقة وحنان .

ـ حسنا . وداعا يا شارل .. سأراك في يوم من الايام .

وهز الشاب رأسه وهو مضعضع الحواس .

ـ ياله من كابوس ..! ومع كل فكل شيء له نهاية ، اليس كذلك ؟ ..

ومد القس يده اليه وغمغم :

ـ يا للفتاة المسكينة .. ارجو الا تقاسى كثيرا ..

ــ اواه يا سيدى القس .. لو انها لم تكن على هذا الثراء العريض ..

وافترق الاثنان ، وذهب الدوق الى القصر ، بينما اتجه القس نحـــو الفناء الرئيسى حيث تنتظره سيارة اديث الطوربيد ، ولما تقدم السائق نحو القس خرج شبح من ظل الباب :

ــ ما النتيجة ؟

ــ أهذه انت يا انسة لوسيل · تعالى ·· اريد ان افضى اليك بكلمتين .. هاك ما عليك أن تعمليه .. قابلى الانسة سوموفورد هذا المساء و ...

وتمشى الاب دونا فى الفناء وهو ممسك بذراعها ، واخذ يفضى عليها بالنصائح والتعليمات بصــوت منخفض ؛ وهى تهز رأسها بالموافقة . وافترق الاثنان بعد لحظات ، وتنهدت الفتاة ·

ــ ارجو أن تكون محقا فى تفكيرك ·· سأذهب لاتحدث معها على الفور ؛ اليس كذلك ؟ الى اللقاء ياسيدى القس وحظا سعيدا ·

وركب القس السيارة وانطلقت به وهو يلوح بيده للفتاة معربا عن وده ، ومال على السائق وقال :

ــ لا تسرع هكذا يا صاحبى ، فلست اريد اللحاق بأحد ..

وكان الدوق اثناء ذلك قد دخل الصالون الكبير وهو ينادى :

ــ لوسيل .. هل انت هنا ؟ لقد رحل الاب دونا ،
ــ ان الانسة لوسيل قد صعدت الى غرفتها على

ما اعتقد منذ امد طويل .

واستدار الدوق فوجد مرجريت تحدق فى فونوغراف امامها وتبدو عليها علامات البهجة والانشراح ، فدمدم مزمجرا :

ــ ما الذى تفعلينه هنا ؟

ــ احاول أن أهضم ياسيدى الدوق ، لو انك مرتفعتك ما يقدم هنا من طعام وشراب ·· اتريد سماع اغنية تســرة .. ؟

ووضعت الخادمة العجوز الابرة على الاسطـوانة وأدارت الجهاز ، ورنت فى أذن الدوق كلمات الاغنية ، لو انى علمت ·· ،

ــ هلا أوقفت هذا ؟ ·· أين السيدة الدو ·· أعنى السيدة ؟

ــ فى غرفتها ·· انها حزينة ·· أنت مخطىء يا سيدى شارل ·

ــ هل سألتك رايك ؟

وفتح الدوق الباب المؤدى الى البهو وخرج واغلقه وراءه بعنف ، وهزت مرجريت رأسها

ــ نعم ·· انك مخطىء ·· ولحسن الحظ سينتهى كل ذلك ·

واستمرت الاسطوانة دائرة ، تردد كلمات الاغنية :
ــ « لو انى علمت ، طبعا .. لغيرت مسلكى حتما ــ كان على أن أتروى ·· فقد ينتهى الامر بكارثة » ·
وصفقت مرجريت بيديها محبذة كلمات الاغنية ·

ـ الحق أن هذه الاجهزة عجيبة .. انها تقول كل شيء .. حتى الحقيقة نفسها .

أفاق الدوق صباح اليوم التالى نشطا فقد تأخر فى نومه أكثر من المعتاد فى حجرته التى جددت وتغيرت ، وبعد أن استمتع بحمام دافىء بجوار غرفته ، ارتدى حلة وجيهة للرياضة كان يحتفظ بها للاحتفالات وهبط الى غرفة المائدة كعادته ، ووقف أحد الخدم يقدم له فطوره وخرج بعدها ليقوم بدوره فى الحديقة وقد أعجبته هذه الرفاهية التى أحس بانه لم يولد الا للاستمتاع بها . وسأل الخادم الواقف أمام الدرج :

ـ ألم تنزل الانسة دى جراس بعد ؟

ـ عفوا يا سيدى الدوق .. ان الانسة دى جراس انطلقت بالفرس .. لتحضر القداس فى لوركان على ما أعتقد .

ـ حسنا أشكرك .. وعلى فكرة هل الخادمة العجوز .. أقصد وصيفة السيدة .. هل هى هنا ؟ أريد أن أقول لها كلمتين ..

ـ كلا يا سيدى الدوق .. انها ليست هنا ، لقد رحلت مع سيدتى الدوقة ...

ـ لحضور القداس أيضا ..

ـ لست أعلم يا سيدى ، ولكن المدير يعلم على ما أعتقد .

ـ المدير .. من هو هذا المدير ..؟

ـ عجبا .. المدير يا سيدى الدوق .

وأحس الدوق بالحرج ، فدار على عقبيه .

ـ حسنا .. أشكرك .

وخطا الدوق خطوتين فى الغرفة الامامية وهو متردد ، ثم عاد أدراجه واتجه نحو الحديقة ، وكان أول من قابله فيها هو بيبرو الذى وقف فى لباسه المخملى وقد شبك ذراعيه وأخذ يراقب ثلاثة من البستانية وهم ينظفون ممرات الحديقة ويروون الزهور

ـ بيبرو ..

واستدار الحارس القديم فى بطء وهو شاعر باهميته ورفع قبعته محييا :

ـ أتناديني يا سيدى شارل ؟

ـ أظن ذلك .. ما الذى تعمله هنا ؟

ـ انا أراقب .. أو قل أشرف .. أنت تعلم أن سيدتى الدوقة عينتنى مديرا للقصر ومشرفا على كل العمال والخدم ، ولذلك . فانا أتولى الاشراف والمراقبة .

ـ حسنا .. حسنا جدا .. استمر فى عملك ، وأين مرجريت ؟

ـ ان سيدتى الدوقة قد اصطحبت « وصيفتها » معهـا ..

ونطق الحارس العجوز بكلمة « وصيفة » بسخرية لاذعة حتى أن الدوق لم يجرؤ على الرد وهو يعلم انه لن يخبره باى شيء خلاف ذلك . فدار على عقبيه واتجه نحو الجراج فرأى العمال مشغولين بغسل السيارات وتنظيفها فتركهم وذهب الى الاصطبل وتمتم وهو يدخل :

ـ يا الهى .. لقد انطلقت لوسيل بالفرس .

وصرخ فجأة فى دهشة كبرى .

— آه ، يا الهى ..

رأى امامه ثلاثة جياد تلتهم التبن ووقف يراقبها فى اعجاب بالغ واخذ يصفر بنغم اغنية للصيادين . وقال بييرو وهو يقف خلفه .

— انها حقا جياد جميلة .

وهز الدوق كتفيه وخرج غاضبا ، وخطا ثلاث او اربع خطوات فى تردد ثم كر عائدا واشار الى احد الجياد .

— اعدو لركوبى .. يا بييرو .

— آه .. هناك من يقومون بهذا العمل .. ان ما على هو الاشراف على الادارة فعلا . وباشارة منه دخل احد السياس وطهم الجواد واعده ، واخذ الدوق يتمعن رأس الجواد البديع واذنيه الطويلتين وعينيه اللامعتين وعندما اقتيد الجواد الى الفناء . التفت الدوق الى بييرو :

— اين ذهبوا ، تكلم ..

— من يا سيدى شارل ؟ ..

ولم يصر الدوق على السؤال وقفز على ظهر الجواد ، واختفى فى الحديقة وفرك الحارس العجوز يديه : —

— حقا .. لابد وان يعود الى صوابه .

وعاد الدوق بعد ساعتين فوجد لوسيل فى انتظاره على الشرفة وبادرته بقولها :

— يا الهى .. شارل .. اراك تركب خيولى

ونظر اليها الشاب وقد انعقد لسانه ولم يجب

— انك تخطىء . ان رأيى هو اما ان تأخذ الكل او لا شىء .. وعلى العموم هذه مسألة تخصك .

وقفز الدوق على الارض ، فهبطت لوسيل الدرج نحوه .

— هيا بنا .. لقد أعد طعام الغداء .

— حسنا .. وهى ؟

— هى ؟ أتقصد الانسة سومرفورد .. ؟ ولكنها رحلت ..

فاصفر وجه الدوق وارتجف واضطر الى الاستناد الى الجواد .

— رحلت ؟ الى اين ؟

وبقيت لوسيل صامتة ، واتت بحركة تنم عن جهلها ، واستطرد الدوق فى عناد :

— رحلت ؟ متى رحلت ؟ والى اين ؟

— أجهل ذلك .. وماذا يهمك من الامر ؟ ..

— ولكن يا لوسيل .. انا لا أفهم معنى لرحيلها !

وابتسمت لوسيل .

— ماذا تظن ؟ لقد تنازلت لى عن مكانها ، اليس هذا ما كنت تريد ؟

وصعدا درجات الشرفة على مهل ، وخلع شارل قفازيه الواحد تلو الآخر ، وفكر ثم غمغم قائلا :

— أبهذه السرعة .. ؟ بهذه السرعة .. ؟ لم اكن اعتقد .. ولكن ما أهمية ذلك لى

— ماذا تقول ؟

— لا شىء — لا اقول شيئا — وهكذا رحلت .. انك تعرفين الى اين ذهبت ...

— أبدا .. عندما نزلت هذا الصباح .. كانت قد

رحلت مع مرجريت وقال لى الخادم انه لا يجب انتظارها للغداء او ..

وقاطعها الدوق بحدة :

ـ لقد ذهبت لقضاء مهمة وستراها فى المساء ..

ـ لا أعتقد ذلك .

ودخلا الصالون وأعلن أحد الخدم ..

ـ أعدت المائدة يا سيدى الدوق ..

وجلس الاثنان متجاورين دون أن ينطقا بحرف . وجلس الدوق تائه النظرات وبدا كأنه أفاق من حلم عندما قدم له الخادم طبق الشهيات .

ـ كلا شكرا .. أنا .. أنا لا أحس بالجوع .

ونظرت اليه لوسيل من طرف عينيها وسألت .

ـ انك متعب . الهواء الطلق .. ومتاعب هذه الايام الاخيرة .. انى أدرك ذلك .

ـ ولكن لا .. لا . انى ..

وسكت فقالت لوسيل :

ـ اسمع يا شارل . انك كخطيب .. لست لطيفا ومجاملا على الاطلاق .

وطقطق الشاب أصابعه متململا .

ـ آه . أرجوك يا لوسيل . انها ليست هنا . أليس كذلك ؟ اذن فلا فائدة من هذه التمثيلية المؤلمة ..

وبقى بعد ذلك حتى نهاية الاكل مطاطا الرأس صامتا كالمحموم وهو يلعب بفتات الخبز وبعد تناول القهوة اعتذرت لوسيل واختفت . وعندما أراد الخادم الانسحاب بدوره ناداه الدوق

ـ كنت هنا عندما رحلت السيدة الدو .. أقصد السيدة . فهل تدرى الى أين ذهبت ؟

ـ اجهل ذلك يا سيدى الدوق .. لقد استقلت السيارة الطوربيد وسمعتها فقط وهى تقول للسائق « طريق باريس » .

ـ آه . هل أنت واثق من ذلك ؟ حسنا . اشكرك .

وجاء بيرو ليتلقى الاوامر .

ـ أيجب أن أعد لك جوادا بعد ظهر اليوم يا سيدى شارل ؟

ـ كلا . لا فائدة من ذلك .. اسمع يا بيرو .. أين ذهبت مرجريت ؟

ـ آسف .. لست أعلم تماما .. تركت لى كلمة مكتوبة لالحق بها اذا لزم الامر فى باريس على ما اعتقد ...

ـ أتتركنى أنت أيضا .

ـ ماذا اقول يا سيد شارل .. انها فى النهاية خطيبتك ..

ودار على عقبيه وهرب . وأخذ الدوق يتنقل فى القصر الكبير على غير هدى . وكان يلتقى أحيانا بأحد الخدم فيتوقف ويهم بسؤاله ولكنه يعود ويستأنف تجوله . ولم ير لوسيل التى كانت تكتب فى غرفتها حتى المساء . ولكنه قابل الكلب « كنج تشارلز » فى طريقه فصفر له واستصحبه الى الحديقة . وجلس على مقعده وأخذ يناجيه :

ـ وأنت أيضا يا صديقى العجوز . لقد تخلت عنك .. الا فابحث .. ابحث عنها ..

وأخذ الكلب ينبش فى الحشائش وعاد وقد شم ذيله

بين ساقيه والتصق بقدمى الدوق الذى كان يحدث نفسه :

ــ رحلت .. يا للشقاء .. !

واخذ يمر بيده على رأس الكلب فى خفة ولين .

ــ أتتصور ذلك .. ؟ رحلت دون أن تترك أى عنوان .. لقد هربت وهذا خطئى .. ان الكل يقولون انها غلطتى .

ــ هل انت هنا يا شارل . مع من تتكلم ؟ مع قبعتك ؟ .

واستدار الدوق فرأى لوسيل وهى تتقدم ضاحكة ، وهب واقفا ..

ــ سأذهب غدا لمقابلة الاب دونا .. لابد أنه يعلم ..

وعاد الى القصر خلف ابنة خاله ، ولم يفكر حتى فى تقديم ذراعه لها وبعد الانتهاء من طعام العشاء استمر فى صمته واتجه الى النافذة واخذ يتأمل الفناء الرئيسى وقد اغرقه ضوء القمر .

ونزل فى الصباح الباكر من القصر واتجه الى الاسطبل ، وصهلت الفرس لدى رؤيته فاسرجها وخرج بها وبالعربة وهو يقول :

ــ نعم يا جميلتى .. نعم سنذهب للبحث عنها ..

ولم تمض عشر دقائق حتى كان منطلقا بالعربة فى طريق لوركان ، وهو يحث الفرس على الاسراع بصوته وسوطه . والتقى بالاب دونا وهو عائد بعد انتهائه من قداس الصباح

ــ ها انا اراك ثانية .. ما الذى أتى بك ؟ ..

ووقف الاب دونا وذراعاه متشابكتان على صدره مراقب الدوق وهو يهبط من العربة ويتقدم نحوه ، وضم الدوق يديه .

ــ سيدى القس .. أين هى ؟

ــ من ؟ ..

ــ انك تعرف من اقصده لا داعى للتلاعب بالكلمات .. أين السيدة الدو ..

أين الانسة سومفورد ؟

ــ انك لم تعطنى اياها يا عزيزى لكى احتفظ بها .. أليس كذلك ؟ لقد أردتها أن تذهب وقد رحلت ..

ــ الى اين يا سيدى القس .. الى اين ؟

ــ لا أعلم ، لقد أبلغتها برغبتك ، وقلت لها أن مغادرتك للقصر ستكون اقل ايلاما لك اذا تمت أثناء غيابها ، وقد اقتنعت بوجاهة الاسباب التى ذكرتها ، ولن تعود الى القصر قبل رحيلك عنه .

ــ هل هذا صحيح ؟ انه غير ممكن ..

ــ انى أؤكد لك .. ان الفتاة المسكينة تعانى بما فيه الكفاية من الاحزان . كانت تريد أن تتخلى لك عن القصر واراضيه ، ولكننى اكدت لها أنك لن تقبل املاكا لم تعد تخصك ، وقد حل دورك الآن لمغادرة القصر باسرع ما يمكن ..

ونظر الدوق الى الاب دونا بنظرات شاردة .

ــ رحيلى ؟ نعم ، هذا صحيح .. سأرحل ..

ــ على فكرة ، لقد فكرت فيك . فحيث أنك تحب الانسة لوسيل باخلاص الى هذا الحد وهى تبادلك هذا الحب ، وأعتقد أنه فى الامكان الحصول لكما على الاذن بالزواج وقد قابلت الاستاذ روميجو .. وقدمت شكوى .. وسيتلو ذلك طلاقك بطبيعة الحال .. نعم ، هذا كل ما فى

الأمر .. وأرجو الآن عذرا يا بني اذ علي اعداد درس الديانة للساعة العاشرة ..

واختتم القس حديثه بأن ربت على كتف الدوق في ود ولطف، ثم دخل أبرشيته .

ـ ماذا دهاك يا شارل ..؟ ان مظهرك وأنت الخطيب السعيد الذي حدثتني عنه أمس الأول ليدعو الى العجب ..

ولم يجب الدوق بل ركب عربته وبدلا من أن يحث الفرس على الاسراع هذه المرة تركها تنطلق على مهل، واستغرق في العودة الى القصر قرابة ثلاث ساعات واضطر عند وصوله الى الاستماع لسخرية بيبرو ونصائح لوسيل :

ـ كتبت الى والدتي يا شارل، وهي تنتظرنا بعد غد .. وعليك أن تعد حقائبك يا صديقي اذ ليس في استطاعتنا أو من اللياقة أن نمد اقامتنا هنا ..

ـ نرحل .. بمثل هذه السرعة .. كلا، استمعي لي يا لوسيل .. لست أريد . أنا لا ..

وبذل مجهودا ومر بلسانه على شفتيه الجافتين :

ـ لست اريد الرحيل على هذا النحو .. يجب أن أراها ثانية .. وأن أقول لها

ـ ما الذي تريد قوله .؟

ـ أنا .. أنا لا أعرف .. أريد على العموم أن أشكرها .. وأني .. وأني ..

وتهالك المسكين على مقعد وأمسك برأسه بين يديه وتنهد، ونظرت اليه لوسيل في عطف وواصلت الحديث .

ـ اسمع يا شارل سأذهب أنا . ان هذا الموقف المحرج لا يمكن أن يطول، سأرحل غدا، وأما أنت فاعمل مايمليه عليك ضميرك وأمانتك .

وتركت الفتاة الدوق وحده . وخرجت الى الحديقة، وتقابلت مع بيبرو فمالت عليه على الفور ووضعت في يده ورقة .

ـ ابعث بهذه البرقية الى لوركان في الحال ..

وتطلعت حولها لتتأكد من أن احدا لم يتبعها، ومكثت بعد ذلك الى جانب الدوق حتى المساء وهي تحاول أن تقنعه بأن مكانه لم يعد في القصر، ولكنه كان يكرر في عناد :

ـ عندما تعود .. سأشرح لها .. سأسألها أن .. سأقول لها في النهاية أن .. آه، دعيني وحدي ولا تضايقيني ..

ومر اليوم وكأنه لا ينتهي، وطال الليل والدوق يروح ويجيء في غرفته حتى مطلع الفجر، ولما حل به اليأس حاول أن يرجع انتظاره الطويل الى الترتيب والاعداد للسفر، وعندما اقترب موعد العشاء نادى بيبرو :

ـ ستنقل متاعي غدا الى لوركان .. أليس كذلك .

ولما نزلت لوسيل الى المائدة، رأت الدوق مصفر الوجه، وغمغم في صوت مختنق

ـ انك على حق يا لوسيل .. سنرحل غدا .

وسمع أثناء تناولهما صنف الحلو صوتا يدوي في الهواء، لآلة التنبيه في سيارة توقفت عند سور الحديقة، ورفع الدوق رأسه وهب واقفا وأسرع نحو النافذة .

ـ أنا واثق من أنها هي .. آه .. الآن يمكنني الرحيل ..

واسرع الى الخارج عقب ذلك وهو عارى الرأس ، ووصل الى الفناء الرئيسى عندما توقفت السيارة الطوربيد ، وهبطت الآنسة بومفورد منها ، ونظرت الى الدوق بامعان :

ـ آه .. انى آسفة .. لقد اعتقدت أنك رحلت .. لقد قيل لى ..

وبان عليها التردد ، ثم فارقت الدوق دون أن تتم عبارتها .. وبينما هى تخلع معطفها اقترب منها شارل وقال فى صوت مضطرب :

ـ سأرحل غدا يا آنسة .. وأردت .. أردت فقط . قبل رحيلى .. أن أقول لك .. أن أشرح لك ..

وصوبت الفتاة نظراتها الى وجهه فى هدوء تام :

ـ ليس هناك ما تقوله لى يا دوق .. ولست أريد الاستماع الى المزيد .. أعتقد أنك قلت لى ما فيه الكفاية .. أليس كذلك .. ؟ وعلى فكرة . عد الى المائدة ، أرجوك .... ان خطيبتك تنتظرك ...

وأغفلت اليد الممدودة اليها ، واتجهت الى الدرج دون أن تدير رأسها .. وتتبعها الدوق ولمس طرف ثوبها وهى تصعد ، ورجاها :

ـ يا آنسة .. انى .. انى أردت .. أن أقول لك .

واستدارت اديث ، وكان الناظر يحس بألمها المكبوت وقلقها ، ولكنها استعادت رغم ذلك ثباتها .

ـ أرجوك .. أنا آسفة فقط لعودتى مبكرة ..

ووصلت الى نهاية الدرج واختفت فى الرواق الذى

يؤدى الى غرفتها . ولما عاد الدوق الى الصالون ، اتجه نحو لوسيل التى كانت تتسلى بالحياكة الى جانب نافذة :

ـ انك محقة ، يالوسيل .. سترحل غدا .. لقد أخطأت بانتظارى طيلة هذا الوقت ..

وأخطأت بانتظارى لها .. هى ، .. !

• • •

الفصل العاشر

توقفت فى نفس الليلة نحو الساعة الثانية صباحا سيارة صغيرة أطفئت أضواؤها على مقربة من سور القصر ، وهبط منها رجلان واتجها نحو الجدار الذى لاح لونه الابيض فى ظلمة الليل • ولما أراد الرجل الاطول منهما التعلق به وتسلقه ، أمسك به القصير وسأله :

— أانت مصمم تماما ؟

— نعم ، انى مصمم •• لقد سألت أحد خدم القصر اليوم ، ولا يمكن أن أخطىء •• بالتأكيد انى مصمم •• ان مثل هذه العملية الرابحة لا يمكن التخلى عنها •

وعاد القصير يتحدث :

— انك فى رأيى على خطأ •• اذا لم تنجح عملية ما ، فلا معنى للعودة الى ممارستها • واذا كنت قد رافقتك اليوم ، فان ذلك لم يكن الا لنصحك ، ولكن ••

فتضايق الاول وتمتم :

— هذا مفهوم . مفهوم .. انك تعرف جوزيان ، وهى تريد هذا العقد ، وقد وعدتها باحضاره لها .. وما الذى أجازف به •• ؟ انى أعرف مداخل القصر تماما •• وقد مارست مهنتى فى هذه البلاد فيما مضى ، وأعلم أين تقيم هى •• انها مسألة ربع ساعة اذا كانت معلوماتى صحيحة •

— حسنا •• انك تعترف باننى عملت كل ما فى وسعى لاقناعك بالعدول عن هذه العملية •• فلست أدرى ما الذى

يدفعنى الى التخوف منها •

— دعك من هذه المخاوف • انك تعلم تماما انهم يعتقدون اننا فى بروكسل ، يا سيد كريبان ••

— لا تذكر أسماء •• ان لك عادة سيئة •• وهى المناداة عاليا بالاسماء •

— وعلى أية حال فأى ضرر فى هذا يا سيد كريبان .. ؟

— اسكت •• ان لى مكانة معروفة فانا لست بالشخص العادى ، فعندما يكون المرء مقيدا فى سجل السجل التجارى ••

— أرجو أن تفيد من ذلك •• هيا الى العمل •

وقال صوت من العربة •

— كن حكيما ولا تتهور يا فيكتور •

— لا •• لا •• اصغ الى يا سيد كريب ••

— هل نسيت مرة أخرى •• ؟

— آه ! انك تضايقنى •• لقد اتفقنا • سأتسلق أنا وسأذهب حتى غرفتها الكائنة فى الركن الاخير من الجناح الايمن ، وسآخذ كل ما يمكن الاستيلاء عليه ، وانت ستقف للمراقبة ، واذا شعرت بأى خطر ، فما عليك الا أن تطلق صفارة فأسرع بالهرب •

— مفهوم . هل معك الماسة لقطع الزجاج .. ؟ والمعجون اللاصق ؟

— اتظننى غشيما .. او جاهلا باصول الصنعة ؟

— لا .. لا تغضب •• انك تحمل المسدس أيضا ••

— نعم وهو محشو فى جيبى ، ومعه زجاجة من الكلوروفورم

— اذهب اذن .. ولكنى اؤكد لك مرة أخرى انك على خطأ ••

ـ انك تصلح لان تكون بوليسا سريا خاصا يا سيد كريب .

ـ اسكت ..

واتجه الرجل القصير نحو السيارة .

ـ تنتظرينا انت يا جوزيان .. اليس كذلك . امسكى بعجلة القيادة وكونى على استعداد للتحرك بمجرد عودتنا ، تذكرى ان محرك السرعة الى اليمين وللقيام ادفعيه الى الامام .. امفهوم هذا ؟

ـ نعم يا سيد كريب ..

ـ اه ! وانت ايضا ! ليس لى الا ان اغير اسمى معكما ..

وعاد الى زميله ووقف منحنيا الى جانب الجدار فقفز الاخر على ظهره . وبعد محاولة قصيرة كان جالسا على الجدار ، فانحنى ومد يده الى شريكه فلحق به . وهبط الاثنان فى حديقة دامبكور ، وتواريا فيها . واتخذ الرجل القصير مكانه فى ظل شجرة ضخمة وقال :

ـ سانتظرك هنا .

ـ الا تاتى معى ؟

ـ انا .. ؟ معك ؟ ماذا تقول .. ؟ انا رجل اديب ، ولست لصا .. !

ـ هذا صحيح .. فانك كاديب تلعب دور مسجل العقود ببراعة . اذن الى اللقاء قريبا ! وعلى العموم اذا نجحت فانك ستنال أتعابك .

وتدحرجت فى هذه اللحظة كتلة بيضاء نحوهما وهى تزمجر . ووثب احدهما مذعورا

ـ يا للداهية .. ! انه كلب .. !

ـ انى اعرفه جيدا .. فهو لم يفارقنى مدة ثمانية ايام .

وصفر الرجل الطويل صفيرا خافتا ، فاتجه اليه الكلب . كنج تشارلز ، وهو يبصبص بذنبه واخذ يلعق يديه ، وابتسم الرجل .

ـ هدوءا .. ! ايها الكلب الصغير .. هدوءا .. اين سيدتك

وسار الرجل سريعا بمحاذاة الجدار ووصـــل الى مجموعة من الاشجار اخترقها ليصل الى ركن القصر وعند وصوله رفع بصره واخذ يعد .

ـ خمس نوافذ .. هذا احسن . وهناك ماسورة ستساعدنى ..

وامسك بماسورة المياه بكلتا يديه وتسلقها حتى وصل الى الكورنيش الذى يحيط بواجهة القصر . وتمكن بعد جهد من رفع جسمه والرقود عليه ملتصقا بالجدار ، ولما نظر الى اسفل وجد الكلب تحته يحملق فيه ومدليا لسانه :

ـ اذهب .. كل شىء على ما يرام ..

وزحف بحذر حتى وصل الى نافذة مغلقة بالطابق الاول ، فاخرج سكينا ادخله بين مصراعيها ورفع به المزلاج بعد محاولات عديدة فانفتحت النافذة وبرز القمر من وراء احدى السحب فغمر الستار المسدل عليها بضوئه .

ـ يا للداهية .. ! القمر ، الم يكن فى وسعه ان ينام ايضا ..

وبحركة بهلوانية ارتقى حافة النافذة التى قاومت ضغطه عليها ، واستند الى اطارها محاولا اخراج الماسة من جيبه ، فاختل توازنه سواء كان ذلك بسبب عصبيته او حركة خاطئة وارتمى على النافذة ، ولم يتحمل الزجاج ثقله فتساقط على أرض الغرفة محدثا صوتا مكبوتا بسبب

الستار .

— هذا حظي حقا . لقد بدأت اعتقد في صحة تحذير كريبان .. ولكن لم يعد هناك وقت للتراجع ..

وادخل يده بسرعة في فتحة النافذة غير آبه بقطع الزجاج الحادة التي علقت بسترته وبحث عن مقبضها حتى عثر عليه ، ولكنه كان من النوع القديم فقاوم ضغطه واخذ الرجل يسب ويلعن وارتفع صوت في ظلام الغرفة .. !

— ما الذي حدث .. ؟ من هنا ! النجدة .. النجدة !

وتمكن اللص اخيرا من فتح النافذة بضربة من ركبته وقفز الى الداخل وازاح الستار من امامه واتجه نحو اديث التي وقفت تراقبه وقد استولى عليها الرعب، وقال لها الرجل وهو يصوب مسدسه نحوها :

— هيا .. احضري المجوهرات .. اسرعي .

وهوت الفتاة فجأة بيديها التي كانت ترفعهما فوق راسها على قبضة الرجل وامسكت بها واخذت تهزها ، وضغط الرجل على الزناد رغما عنه ، فدوت الطلقة بصوت مخيف في الغرفة .. وفقد اتزانه وبروده فترك المسدس يسقط وامسك بخناق اديث بيده الاخرى :

— المجوهرات .. اريد المجوهرات .. كنت تودين منذ ثمانية ايام ان تعطيها لي وانت فرحة .. هيا اسرعي .

وسمعت صرخات صادرة من اعماق القصر ، ونادى صوت مضطرب من وراء الباب .

— يا آنسة .. اديث .. ما الذي حدث .. ؟

واستعادت الفتاة شجاعتها لحظة ، وصاحت في صوت مختنق :

— النجدة .. انك تؤلمني .. المجوهرات .. في

مكتبي ..

ودفعها اللص في غضب على فراشها ، واسرع نحو المكتب محاولا فتحه ، بينما كانت الضربات القوية تنهال على الباب وترجه وانفتح فجأة .. ودهش اللص وحاول الانحناء لالتقاط مسدسه . فصاحت اديث :

— حذار يا دوق .. يا شارل .. انه مسلح

وارتمى الدوق على خصمه وطوقه بذراعيه قبل أن يتمكن من التقاط المسدس ، وضغط عليه والقى به على الارض وقد ضاعف الغضب من قوته ، والتقط بيير الذي تبع الدوق المسدس وجرى نحو النافذة واخذ يصيح :

— تعالوا هنا .. شكرا لله .. ! لقد قبضنا عليه .

ومد ذراعه بالمسدس وصوبه ثم أطلقه فسمعت صيحة مكبوتة ، وكان شريك اللص في هذه اللحظة فوق سور القصر فرفع يديه في الهواء واهتز ثم سقط على الجانب الاخر .

واندفع الخدم في الحديقة ملبين اشارة بيير ، بينما كان الدوق يهوى بقبضته المرة تلو الاخرى على وجه اللص الذي كان يولول :

— اتركني .. اتركني .. انى استسلم .. انك تؤلمني ..

— ايها اللص . ايها المجرم .. سأريك .. سأريك

وكانت اديث تبكي خلال ذلك ولوسيل ومرجريت تحيطان بها .. كانت هناك اربع بقع حمراء تركتها اصابع اللص على رقبتها البيضاء .

— آه .. ! هذا فظيع .. ! مخيف .. ! انى اشعر بالم .. !

وامسك الدوق اللص بقبضته القوية وتناول حبل الستار وقيده به ثم القاه بضربة قوية على احد الاركان

وعيناه داميتان .

وتركه الدوق دون أن يهتم به ، وعاد الى اديث واحتضنها بين ذراعيه وهو يتمتم :

ـ يا آنسة .. اديث .. يا عزيزتي .. اين تشعرين بالالم ؟

وفتحت الفتاة عينيها ونظرت الى حاميها بفرح وغمغمت هامسة :

ـ اواه يا عزيزي شارل .. ! لم اعد اتألم .. ! انا سعيدة جدا .. ! انا احبك .. كثيرا .. كثيرا جدا .

وطأطأ الدوق رأسه واخذ يتحسس شعرها الذهبي المتهدل على جبهتها الملتهبة

ـ سامحيني يا عزيزتي المسكينة .. سامحيني ..

وعاد بييرو وقال

ـ لقد هربوا في سيارة .. ولكنني ابلغت الشرطة .. سيعثرون عليهم وقد جرح شريك اللص ..

ورأى اللص الذي تورم وجهه الدامي وتبدلت معالمه ..

ـ اه .. ! ها انت هنا .. ! ايها اللص .. !

ـ ولكنني استسلمت .. فاتركوني وشأني ..

وصاحت اديث فجأة :

ـ شارل .. انه هو .. الدوق المزيف

واشارت باصبعها الى اللص الذي فزع ورفع رأسه ، وبحثت الفتاة في وجهه الدامي عن ذلك الشارب وسمات العظمة التي اغرتها ، ونظر الدوق الى المخلوق التعس ثم ادار وجهه :

ـ خذوه .. ان حسابه لعسير .

والتفت اثنتا عشرة يد الى كتفي فيكتور ديبوا وجرته

خارج الغرفة ، ثم نقلته الى اسفل الدرج حيث قيد وربط الى احد المقاعد ، وقال بييرو :

ـ كنت في البحرية واعرف كيف تربط العقد ، واها لك .. ! أكنت تريد أن تلعب دور السيد ممثل ايها المجرم .. سترى :

وكان شارل اثناء ذلك يركع في الغرفة امام اديث . ويتطلع اليها وقد غلبته عواطفه ومشاعره .

ـ لم رحلت يا عزيزتي .. آ يا الهي ! هذه الايام الاربعة بدونك .. ! يا لها من ذكرى موجعة .. ! اين كنت ؟

ونظرت اليه اديث مسندة رأسها الى الوسادة ، ووجهها تكاد تخفيه الاغطية وابتسمت في سعادة طاغية :

ـ اسمع يا شارل . كنت متضايقة من نفسي .. ولذلك رحلت .. آه كلا ليس بعيدا . الى بوردو . وانا اعلم من وكيل أبي ان هذا الاخير سيصل قريبا جدا .. غدا ، على ما اعتقد . ولذلك اتيت لانتظره واعلمه باشجاني .. ثم اعود معه وحيدة الى امريكا .. وحيدة تماما .

ـ اي حبيبتي .. !

ـ ووصلتني امس برقية من .. « خطيبك » تطلب مني العودة .. وقد اتيت . وما اسعدني .. !

ـ لوسيل .. !

ـ نعم لوسيل ، اول صديقة لي .. شارل ، اني احبك كثيرا .. كثيرا جدا .

ـ وانا ايضا يا اديث .. احبك واستميحك عذرا ..

وقبل الدوق يد اديث وتركها لتستريح ، ولكن الفتاة نظرت اليه بعينيها الواسعتين الصافيتين في توسل :

ـ كلا .. لا تذهب .. لا اريد ذلك .. انى اتمسك . اريد الاحتفاظ بك . انى اخشى جدا ان افقدك مرة اخرى .

وامسكت اصابعها بيد الدوق بقوة ، فجلس متاثرا ، واسبلت اديث جفنيها وهى تغمغم :

ـ لشد ما احبك .. !

وتحدث الاثنان طويلا بصوت خافت لا يكاد يسمع ، واغمضت اديث عينيها وراحت فى سبات هادىء وقد ارتسمت ابتسامة على شفتيها . ومكث شارل ساكنا لا يتحرك وهو يراقبها ، ولا يمل من الاعجاب بها .

ـ زوجتى .. ازوجتى .. !

ودخلت لوسيل بعد فترة طويلة مع مرجريت فنظر اليها شارل ومد يده :

ـ اشكرك .. اشكرك ..

واكتسح ضوء الفجر سواد الليل واشار الدوق للوسيل الى اديث الغارقة فى النوم وقال : اكنت مجنونا .. !

• • •

ودوى نداء من اعلى الدرج جعله يرفع رأسه .

ـ ابى .. يا ابى الحبيب . ليس هذا هو الدوق الحقيقى .. ان الحقيقى يقف خلفك .. !

ووثب سومفورد على الدرج بسرعة خاطفة ، ولحق باديث وهى مازالت ضعيفة تنتابها الرعشة ، فتقدمت نحوه مستندة الى ذراع لوسيل التى كانت ترتدى معطف السفر ، ولحق شارل بهم .

واستدار سومفورد بعد ان قبل ابنته على خديها :

ـ ما الذى حدث يا اديث .. ؟ انى لا افهم شيئا .. !

ـ الامر بسيط يا ابى .. انى اقدم لك الدوق شارل دى بوربون دامبكور .. وحياه الشاب وصافحه سومفورد هازا يده بقوة :

ـ حسنا ، انى افضله فهو يعجبنى .. انه شاب قوى متين البنيان .. وما حكاية الاخر .. ؟

واشار الى فيكتور ديبوا الذى كان فى اسفل الدرج مكبلا لا يتحرك .

ـ انه لص يا ابى . وساشرح لك كل شىء ..

واشار سومفورد الى شارل ووضع يده على كتفه :

ـ لا داعى لذلك ، هذا هو الذى يعجبك ، حسنا ، اذن فالاخر لا يهمنى

وخلع حرملته واستانف حديثه

ـ لما انقطعت انباؤك عنى يا صغيرتى ، اخذت الطائرة من امريكا الجنوبية وها انا ذا هنا .. ! ان هذا اسرع من الباخرة .

وقبل اديث مرة اخرى ، ثم اخذ يجيل انظاره فى القصر .

ـ ان البلاد جميلة جدا ، والمكان هنا بديع .. لقد شاهدته وانا ات .. فى الوسع اقامة مصنع .. فالمكان ممتاز .

وتجمعت لوسيل ، والاب دونا وبييرو ومرجريت حول اديث ، فاخذت فى تقديمهم لوالدها العزيز فى عطف وحنان وقالت :

ـ هاك كل من اشتركوا فى صنع سعادتى .. اشكرهم يا ابى ..

ومد سومفورد يده اليهم وصافحهم :

ـ اهو كذلك ؟ حسنا .. اتحبون الحلويات .. ؟ سارسل لكم منها .

وعاد شارل الذي كان قد انسحب لالقــاء بعض الاوامر ، فأسرعت اليه اديث قائلة :

– زوجي ·· ! زوجي الحبيب ·· انه لي وحدي ·· ! زوجي ·· !

وتشابكت ايدي الاثنين ، وغابت الشمس التي كانت تنفذ أشعتها خلال نافذة مفتوحة وراء سحابة ، وانسحب اصدقاء اديث وقد انغمس كل اثنين منهما في الحديث .

وصاحت اديث :

– انظر يا أبي ·· ها هي الشمس نفســها ·· تختبيء ·· انها مرهفة الشعور ، لا تحب الفضول ·· مثل الآخرين

واخذ طائر يشدو فوق اغصان اشجار الصنوبر ·

(تمت)

رقم الإيداع بدار الكتب
٤١١٨ / ١٩٧٠

مطابع الأهرام التجارية